

منهج ابن القيم

في دراسة عقائد اليهود



مركز تحقيقات الكمبيوتر تهديد

نظرة مجملة في تاريخ اليهود

قبل الشروع في الموضوع رأيت من الضروري أن أمهد بعرض تاريخي سريع لحياة اليهود ونشأتهم قبل البدء بعرض عقائدهم من خلال منهج ابن القيم في بيانه لتلك العقائد، لا سيما وأن التاريخ اليهودي له أثر كبير في عقيدتهم بخلاف التاريخ الإسلامي الذي ليس له أثر في العقيدة الإسلامية، ويظن كثير من الناس وخاصة اليهود أن اليهودية ترجع تاريخياً إلى إبراهيم عليه السلام ديناً ونسباً باعتباره الجد الأول والأعلى لليهودية، والحقيقة التي أقرها في هذا البحث أن إبراهيم عليه السلام ليس له صلة باليهودية ولا بالتوراة فهو لم يكن يهودياً حتى ينسبوا اليهودية إليه بدليل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ

المُشْرِكِينَ ﴿آل عمران: ٦٧﴾، وقوله أيضاً عز وجل: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، فاليهودية ما ظهرت ولا عرفت إلا بعد موسى عليه السلام وهذا ما سنبينه بعد قليل، أما السؤال الذي يطرح نفسه هنا لماذا يرجع اليهود بنسبهم ودينهم إلى إبراهيم عليه السلام؟

فهذا يرجع والله أعلم إلى أنهم يريدون أن يعطوا لنسبهم ودينهم عمقاً تاريخياً تمتد جذوره لتصل إلى إبراهيم عليه السلام ولذلك نراهم تارة يسمون أنفسهم بالعبرانيين، وتارة أخرى بالإسرائيليين كما هو معروف عند يهود اليوم، وعلى أية حال فإن أياً من هذه الأسماء تطلق اليوم فإنه ينصرف إلى الأذهان اليهود الذين يتمسكون الآن بالتوراة المحرفة في شتى أنحاء العالم وخاصة الذين يقيمون دولتهم المسماة (إسرائيل) ظلماً على أرض فلسطين علماً أن هذه الأسماء (العبري، الإسرائيلي، اليهودي) كلها ألفاظ متداخلة لكنها ليست متطابقة.

وسأتجاوز الحديث بشكل مفصل عن هذه المسميات تجنباً للإطالة وسأبدأ الحديث بشكل سريع وإيجاز شديد من عهد موسى عليه السلام باعتباره أهم شخصية دينية في بني إسرائيل.

أولاً: عهد موسى عليه السلام:

يعتبر موسى عليه السلام من نسل لاوي (ليفي) أحد أبناء يعقوب^(١)، حيث أرسله الله هو وهارون عليهما السلام إلى بني إسرائيل يبلغانهم دعوة الله، داعينهم إلى إخلاص العبودية لله سبحانه إلا أنهم عصوهما؛ ولأجل شدة أذى فرعون لهم خرج بهم موسى -عليه السلام- من مصر إلى سيناء فسطروا مع موسى قصص العصيان

(١) وافي، علي عبد الواحد، (اليهودية واليهود) (ص ١٠٤)، والبار، محمد علي، (المدخل لدراسة التوراة والعهود القديم) (ص ٥٨).

والعناد وقد ذكرها القرآن الكريم في آياته الكريمة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلْقِهِمْ عِجْلًا جِثْدًا لَهُ خُورَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥]، ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [الأنعام: ٢١-٢٢]، ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤]، كما بينها أيضاً سفر الخروج، ومن ذلك الإصحاح (١٦ / ٢-٣) وقد كان آخر قصص عصيانهم عندما دعاهم موسى لدخول فلسطين وقاتل أهلها ووعدهم بالنصر إلا أنهم تقاعسوا عن ذلك، فكتب الله عليهم التيه أربعين سنة، وفي هذه الفترة مات هارون ثم موسى عليهما السلام^(١)، وتولى يوشع بن نون قيادة بني إسرائيل، فاستطاع أن يدخل بالجيل الجديد منهم أرض فلسطين، حيث بدأوا حياة جديدة تنعم بالاستقرار وقد كان رؤساؤهم في صدر هذه المدة من القضاة^(٢).

ثانياً: عهد القضاة:

وهو العصر الذي أعقب موت يوشع بن نون عليه السلام، وفيه ارتد بنو إسرائيل عن دينهم وعقيدتهم إلى الوثنية وتمسكوا بعبادات وتقاليد مخالفة لحياتهم الدينية والاجتماعية، مما حدا بعدد من الزعماء المحليين لهم وهم (القضاة)، بالتصدي لذلك

(١) شلي، أحمد، (مقارنة الأديان- اليهودية) (ص ٧٨)، وافي، علي عبدالواحد، (اليهودية واليهود) (ص ١٠٥).

(٢) وافي، علي عبدالواحد، (اليهودية واليهود) (ص ١٠٦).

والعناد وقد ذكرها القرآن الكريم في آياته الكريمة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلْيِهِمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلُمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥]، ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [الأنعام: ٢١-٢٢]، ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤]، كما بينها أيضاً سفر الخروج، ومن ذلك الإصحاح (١٦ / ٢-٣) وقد كان آخر قصص عصيانهم عندما دعاهم موسى لدخول فلسطين وقاتل أهلها ووعدهم بالنصر إلا أنهم تقاعسوا عن ذلك، فكتب الله عليهم التيه أربعين سنة، وفي هذه الفترة مات هارون ثم موسى عليهما السلام^(١)، وتولى يوشع بن نون قيادة بني إسرائيل، فاستطاع أن يدخل بالجيل الجديد منهم أرض فلسطين، حيث بدأوا حياة جديدة تنعم بالاستقرار وقد كان رؤساؤهم في صدر هذه المدة من القضاة^(٢).

ثانياً: عهد القضاة:

وهو العصر الذي أعقب موت يوشع بن نون عليه السلام، وفيه ارتد بنو إسرائيل عن دينهم وعقيدتهم إلى الوثنية وتمسكوا بعبادات وتقاليد مخالفة لحياتهم الدينية والاجتماعية، مما حدا بعدد من الزعماء المحليين لهم وهم (القضاة)، بالتصدي لذلك

(١) شلي، أحمد، (مقارنة الأديان- اليهودية) (ص ٧٨)، وافي، علي عبدالواحد، (اليهودية واليهود) (ص ١٠٥).

(٢) وافي، علي عبدالواحد، (اليهودية واليهود) (ص ١٠٦).

الإنحذار محاولين على مدى أكثر من قرنين من الزمان أن يمنعوا المجتمع العبري من الإنزلاق في الكفر والفجور^(١) وقد اتسمت هذه الفترة أيضاً بكثرة الغارات والغزوات من قبل الفلسطينيين وغيرهم على الإسرائيليين، فقد كان الفلسطينيون أصحاب قبضة واستعلاء أتاح لهم ذلك إلحاق الهزيمة بالإسرائيليين والاستيلاء على تابوتهم الذي يحفظون فيه مدوناتهم الدينية^(٢)، وسفر القضاة حافل بذكر هذه الأحداث وقد فصلها دروزة في كتابه^(٣).

ثالثاً: عهد الملوك وينقسم إلى قسمين:

أ- عهد الملوك الأول: وملوك هذا الدور كما يذكر دروزة^(٤) شاول وابنه اشبوشث ثم داود وأبشالوم بن داود ثانياً في حياة أبيه وسليمان بن داود بعد أبيه وسيرتهم مذكورة في الإصحاحات الحادي عشر فما بعد من سفر صموئيل الثاني.

وفي هذا العصر وبعد أن عجز القضاة عن صد شوكة العمالقة^(٥)، عمد الشعب الإسرائيلي إلى نبي لهم لم يعرف اسمه إلا أنه قبل -وحسب المصادر اليهودية- أنه

(١) عبد العليم، مصطفى كمال وراشد، سيد فرج في كتابهما (اليهود في العالم القديم) (ص ٧١)، وظاظا، حسن (الفكر الديني اليهودي) (ص ٣٤).

(٢) دروزة، محمد عزة، (تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم) (ص ١٣٣-١٣٥) بتصرف، وعبد العليم، مصطفى كمال (اليهود في العالم القديم) (ص ٧٢).

(٣) دروزة، محمد عزة، (تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم) (ص ١٢٢)، وما بعدها حيث يورد بتوسع تفاصيل هذه الحقبة.

(٤) دروزة، محمد عزة، (تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم) (ص ١٣٨).

(٥) العمالقة: هم الفلسطينيون يومئذ ولكنهم لم يكونوا على دين صحيح، وأصل لفظ العمالقة مجهول والغالب أنه منحوت من اسم قبيلة عربية قديمة، وكان البابليون يطلقون عليهم اسم مالبق وأضاف إليها اليهود لفظ (عم) بمعنى الشعب، انظر: غربال، محمد شفيق، (الموسوعة العربية الميسرة) (ص ١٢٣٥).

(صموئيل)^(١) قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الْمَلِكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، وقد استجاب لهم النبي وملك عليهم طالوت (شاول)، وكان داود عليه السلام، أحد رجاله، وقد برز في الجانب الآخر (في الجيش الفلسطيني المعادي) جالوت (جوليان)، وكان قوياً إلا أن داود عليه السلام الذي اصطفاه الله ليكون نبياً تغلب عليه وأصبح ملكاً، قال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقد فتح داود مدينة القدس ٩٧٧ ق.م.^(٢) ونقل إليها التابوت وبدأ بالإعداد لبناء المعبد إلا أنه مات واختار الله بعده سليمان عليه السلام ليكون ملكاً نبياً، كآبيه داود عليهما السلام حيث استمر حكمه أربعين سنة وهي نفس فترة أبيه داود في الملك^(٣).

ويعتبر عصر سليمان من أزهى العصور بالنسبة لبني إسرائيل، إذ في عهده تم إنجاز المعبد والذي يسميه اليهود الهيكل.

(١) عبدالمعطي، مصطفى كمال، (اليهود في العالم القديم) (ص ٧٢)، والبار، محمد علي في كتابيه: (١) الله والأنبياء في التوراة والعهد القديم) (ص ٣٢١)، و(المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم) (ص ٧٦)، مصطفى، عبد العزيز، (قبل أن يهدم الأقصى) (ص ٦٤)، وظاظا، حسن، (الفكر الديني اليهودي) (ص ٣٥).

(٢) مصطفى، عبد العزيز، (قبل أن يهدم الأقصى) (ص ٦٥).

(٣) البار، محمد علي، (المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم) (ص ٨٦)، وأيضاً كتابه (الله والأنبياء في التوراة والعهد القديم) (ص ٤٠٩)، ومصطفى، عبد العزيز (قبل أن يهدم الأقصى) (ص ٦٥).

(٤) الهيكل: وهو في الأصل المعبد التابع لقصر سليمان عليه السلام وقد بدأ بالإعداد لبنائه داود عليه السلام حيث جمع له الذهب والفضة والأحجار الكريمة، وتمثل النجمة السداسية (قاعدته ولهذا اتخذها اليهود شعاراً لهم سموها باسم داود عليه السلام وقد تم إنجاز المعبد في عهد سليمان عليه السلام ولهذا يقال هيكل سليمان، وهو عند اليهود بمنزلة الكعبة عند المسلمين، فهو محط آمالهم وأحلامهم وقد بنى ليسكن

وبعد وفاة سليمان -عليه السلام- تولى ابنه رحبعام، وبإيعامه من الأسباط اثنان فقط هما (سبط يهوذا) و(سبط بنيامين) وكانت البيعة في أورشليم^(١) ولما اتجه رحبعام

فيه الرب على حد زعمهم (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً) كما أنهم يزعمون أن المسيح (المسيح الدجال) سيظهر وينزل فيه، والهيكل في تصميمه يشبه الهياكل الكنعانية المنتشرة في بلاد الشام وهو مقسم إلى صالة ثم البهو المقدس ثم قدس الأقداس وهو المذبح ومكان التابوت الذي يجلس فيه رب الجنود، وقد تحطم الهيكل مرتين في التاريخ في الأولى على يد نبوخذ نصر سنة (٥٨٦ ق.م.) ثم أعيد بناؤه على يد الطوائف التي عادت من بابل سنة (٥٣٨ ق.م.) بمساعدة الملك الفارسي (كورش Cyrus)، وفي سنة ٧٠ بعد الميلاد تم تخطيطه مرة ثانية على يد القائد الروماني تيطس وما زال اليهود إلى يومنا هذا يتطلعون لبناء الهيكل الثالث على أنقاض المسجد الأقصى المبارك لأنهم يعتبرون حائط البراق والذي يسمونه (حائط المبكى) هو جزء من حائط الهيكل، ويعتقد نصارى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا أن المسيح سينزل فيه ولهذا فهم يمدون اليهود بالدعم المستمر لإزالة المسجد الأقصى وبناء الهيكل حتى يتمكن الرب (المسيح الدجال) من النزول إلى هيكله. انظر: البار، محمد علي (الله والأنبياء في التوراة والعهد القديم) (ص ٤١٧-٤٢٠) بتصرف، وشلي، أحمد، (مقارنة الأديان- اليهودية) (ص ٢٠٨-٢١٢) بتصرف، وهنا لا بد أن نذكر بحقيقة هامة وهي أنه لا يوجد دليل على أن الهيكل كان في نفس مكان المسجد الأقصى بدليل أن المسجد الأقصى موجود قبل عهد داود وسليمان عليهما السلام بل قبل عهد إبراهيم عليه السلام بدليل الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه (ك/ ٦٠ ب/ ١٠ ح/ ٣٣٦٦) عن أبي ذر رضي الله عنه قال: (قلت يا رسول الله: أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت كم بينهما؟ قال أربعون سنة...) ومن المعلوم أن المسجد الحرام موجود من زمن آدم عليه السلام بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا، ﴿١﴾ [آل عمران: ٩٦]، وكلمة وضع للناس مبني للمجهول وآدم من الناس إذا فهو موجود من زمنه عليه السلام ثم إن قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فكلمة ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ تدل على أن البيت كان موجوداً يوم وضع إبراهيم ابنه إسماعيل رضيعاً ونصوص القرآن تثبت أن رفع القواعد من البيت كان بعد أن وصل إسماعيل سن الشباب والذي يكون فيه قادراً على مساعدة أبيه في تجديد البناء وهذا يدل على أن المسجد الحرام موجود من قبل وبما أن الملة بينه وبين المسجد الأقصى أربعون سنة فهذا يعني أن المسجد الأقصى موجود من زمن آدم عليه السلام وبهذا لا يعقل أن يكون الهيكل مكان المسجد الأقصى كما يعتقد اليهود إذ لاقتضى ذلك أن يكون عهد داود وسليمان قبل آدم عليه السلام وهذا من المحال.

(١) شلي أحمد، (مقارنة الأديان- اليهودية) (ص ٨٩)، ومصطفى، عبدالعزيز، (قبل أن يهدم الأقصى) (ص ٦٥)، والبار، محمد علي، (المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم) (ص ٨٨)، وشنودة، زكي، (المجتمع اليهودي) (ص ٩).

إلى الشمال لأخذ البيعة من باقي الأسباط رفضوا أن يبايعوه وبايعوا (يربعام بن ناباط)^(١) وهكذا انقسمت مملكة سليمان إلى مملكتين صغيرتين متحاربتين هما:^(٢)

١- مملكة إسرائيل في الشمال: وعاصمتها السامرة شكيم (نابلس) ويعتبر يربعام بن ناباط من أشهر ملوكها حيث كان أغلب الأسباط في هذه المملكة وقد تحطمت هذه المملكة وانتهت على يد (سرجون) ملك الآشوريين (٧٢٠ ق.م) وفر من بقي منهم إلى الجبال وهم الذين يعرفون بالسامريين في نابلس حتى الآن.

٢- مملكة يهوذا في الجنوب: وهي مكونة من سبطي يهوذا وبنيامين وعاصمتها اورشليم (القدس) وحكامها من نسل سليمان بن داود عليه السلام، والتي فيها الهيكل وأشهر ملوكها رحبعام بن سليمان وقد استمرت إلى أن حكمها نبوخذ نصر (بختنصر) (٥٨٦ ق.م) ودمر فيها الهيكل لأول مرة وسبى أهلها إلى بابل مع بقاء القليل منهم والتاريخ يحدثنا أن اليهود لم تقم لهم قائمة بعد هذا التدمير إلا في ١٩٤٨ م على أرض فلسطين التي لم يمتلكوها من قبل، وهي التي تعرف اليوم بـ (دولة إسرائيل) والتي يجتمعون إليها من كل بقاع الأرض كما يجتمع الناس في الأسواق

(١) يربعام بن ناباط: أخطأ الدكتور أحمد شلي في كتابه (مقارنة الأديان - اليهودية) (ص ٨٩) عندما اعتبر أن يربعام هو ابن سليمان عليه السلام وقد وقع في نفس الخطأ عبدالعزيز مصطفى في كتابه (قبل أن يهدم الأقصى) (ص ٦٧) ذلك أن يربعام هو أخو رحبعام بن سليمان والصحيح أن يربعام هو ابن ناباط من سبط أفرايم بن يوسف عليه السلام وقد كان يربعام عبداً عند سليمان واستطاع أن يقود ثورة ضد سليمان عليه السلام، إلا أن سليمان عليه السلام تمكن من القضاء عليها وفر يربعام إلى مصر ولما مات سليمان عاد يربعام بدعم من ملك مصر (شيشنق) واستطاع أن يغري عشرة من أسباط بني إسرائيل كون بهم مملكة إسرائيل في شمال فلسطين، انظر: البار، محمد علي، (المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم) (ص ٨٨-٩١) بتصرف، وعبدالعليم، مصطفى كمال، (اليهود في العالم القديم) (ص ٩١-٩٥)، بتصرف، والكتاب المقدس - الملوك الأول (١١: ٢٦-٤٠) حيث يذكر قصة يربعام بن ناباط وثورته ضد سليمان وفراره إلى مصر وعودته بعد موت سليمان .. الخ.

(٢) البار، محمد علي في كتابه (المدخل لدراسة التوراة) (ص ٨٨)، و(الله والأنبياء) (ص ٤٢٥)، ومصطفى، عبد العزيز، (قبل أن يهدم الأقصى)، (ص ٦٧)، وشنودة، زكي، (الكنيسة اليهودية) (ص ٩-١١) بتصرف، وعبدالعليم، مصطفى كمال (اليهود في العالم القديم) (ص ٨٨).

العامة التي ما تلبث أن تنفض وتنتهي ﴿وَاللّٰهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]، وإني أؤكد أن سوق اليهود القائم على أرضنا في فلسطين سياتي على أيدي المسلمين المخلصين، فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر فيقول يا عبدالله هذا يهودي ورائي فاقتله»^(١) وكلنا مدعوون لفض هذا السوق قبل إقامة هيكلهم المزعوم الثالث وإلا فإن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْاْ يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُواْ أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

المبحث الأول

أساس عقيدة اليهود

المطلب الأول

نقد ابن القيم لعقيدة الألوهية عند اليهود

إن عقيدة الألوهية الحققة هي عقيدة التوحيد التي جاء بها جميع الرسل والأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه وهي تمثل الركن الأساسي في الدين ولهذا كانت دعوة الأنبياء جميعاً لأقوامهم قوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، توحيد خالص لله تعالى، وعقيدة الفطرة التي فطر الله الناس عليها، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، ورسالة موسى عليه السلام، شأنها شأن غيرها من رسالات السماء دعت إلى توحيد الله وإفراده بالعبودية فقال تعالى مخاطباً موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل (صحيح البخاري)، (١١٤/٤) كتاب الجهاد والسير، باب قتال اليهود، حديث رقم (٢٩٢٥) عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، و(٢٩٢٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

* إِنَّ السَّاعَةَ آيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿طه: ١٤-١٥﴾.

ثم إن الله تعالى قد أخذ على البشرية جمعاء عهداً بأن يعترفوا له بالوحدانية وذلك عند قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] إلا أن بني إسرائيل سرعان ما نكثوا العهد وأشركوا بالله الأحد وكان بداية ذلك عندما جاوز موسى بهم البحر ورأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم فقالوا: ﴿يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وهنا يظهر منهج ابن القيم رحمه الله في بيانه لموقف اليهود من عقيدة الألوهية والذي يبين فيه مخالفة اليهود لمنطق العقل السليم، حيث أنهم نسبوا إلى الله تعالى صفات النقص والمثابرة وغير ذلك مما لا ينبغي وصفه بها، وهو تعالى منزّه عن ذلك كل التنزيه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وقد استعان ابن القيم رحمه الله بالأدلة العقلية في بيان بطلان وفساد أقوال اليهود معتمداً على النصوص النقلية في تدعيم أقواله سواء كانت هذه النصوص من القرآن الكريم أو حتى من كتب اليهود أنفسهم، ففي معرض الحديث عن طلب بني إسرائيل من موسى أن يجعل لهم إلهاً بعد أن نجاهم الله من فرعون ذلك الطلب الذي يدل على جهالتهم مما دفع موسى عليه السلام أن يرد عليهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرِّءٌ مِمَّا هُمْ فِيهِ وَيَاطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿[الأعراف: ١٣٨-١٣٩].

ويتساءل ابن القيم مقررراً جهالة بني إسرائيل قائلاً: «فأي جهل فوق هذا؟ والعهد قريب، وإهلاك المشركين أمامهم، بما رأى من عيونهم فطلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهاً، طلبوا من مخلوق أن يجعل لهم إلهاً مخلوقاً وكيف يكون الإله مجعولاً؟ فإن الإله هو الجاعل لكل ما سواه والمجعول مربوب مصنوع، فيستحيل أن

يكون إلهاً، وما أكثر الخلف هؤلاء في اتخاذ إله مجعول فكل من اتخذ إلهاً غير الله فقد اتخذ إلهاً مجعولاً^(١). ويتابع ابن القيم في هذه القضية مقررأ أن اليهود لم يعرفوا التوحيد بالله ولا تنزيهه، وظنوه كأي إله من الآلهة التي تعبد من دون الله فهم بعدما شاهدوا تلك الآيات الباهرات طلبوا إلهاً فلم يعرفوا حقيقة الإله ولا أسمائه وصفاته ونعوته ودينه؟ ولو عرف هؤلاء معبودهم، ورسوله لما قالوا لنبيهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾. سورة ص ٥٥.

ولقد أشار ابن القيم أيضاً إلى شركهم وعدم إيمانهم بإله واحد مبيناً أنه لما ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه لم يمهله أن عبدوا العجل الذي صنعتة أيديهم من ذهب وقد شاهدوا صانعه يصنعه ويصوغه ويصلبه النار، ويدقه بالمطرقة، ويسطو عليه بالمبرد، ويقلبه بيده طهراً لبطن، ومن عجيب أمرهم أنهم لم يكتفوا بكونه إلههم، حتى جعلوه إله موسى فنسبوا موسى عليه السلام إلى الشرك وعبادة غير الله تعالى^(٢).

ويرد عليهم ابن القيم قائلاً: «فانظر إلى هؤلاء، كيف اتخذوا إلهاً مصنوعاً من جوهر أرضي، إنما يكون تحت التراب، محتاجاً إلى سبب النار، وتصفية وتخليص لحبشه منه، مدقوقاً بمطارق الحديد، مقلباً في النار مرة بعد مرة، قد نحت بالمبارد، وأحدث الصانع صورته وشكله على صورة الحيوان المعروف بالبلادة والذل والضيم، وجعلوه إله موسى ونسبوه إلى الضلال حيث ذهب يطلب إلهاً غيره^(٣). ولم يكتف اليهود بذلك فجعلوا لله ولداً وقالوا أن عزيزاً ابن الله وأنهم أيضاً أبناء الله كما جاء في سورة التوبة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزُّنَا ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة ٣٠].

(١) ابن القيم (إعانة اللهفان) (٢/ ٢٧٧، ٢٧٨) تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد

(٢) ابن القيم (هدية الخيارى) (ص ٥٧٨)، تحقيق: د محمد الحاح

(٣) ابن القيم (إعانة اللهفان) (٢/ ٢٧٨)، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد

(٤) نفس المرجع السابق (٢/ ٢٧٩).

وما جاء في سورة المائدة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَانْتَصَارِي نُحْسُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ﴾ [المائدة ١٨].

وبن لقيم رحمه الله على مراد شيخه ابن تيمية في رده على زعم اليهود حيث أبطل ابن تيمية رحمه الله هذا الإدعاء منهم بالدليل في قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [المائدة ١٨]. فلو كانوا أبناء الله وأحباءه لغفر لهم الذنوب ولم يعذبهم بها^(١).

ويستمر ابن القيم في نقد اليهود فيقول: «وأما فريتهم على الله ورميهم لرب العالمين ورسله بالعظائم فكثير جداً كقولهم: «إن الله استراح في اليوم السابع من خلق السموات والأرض»^(٢) فأنزل الله تعالى تكذيبهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق ٣٨]، وقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران ١٨١]، وقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة ٦٤].

وقولهم: «إن لله بكى على الطوفان حتى رمدت عيناه وعادته الملائكة»^(٣). وقولهم: «أن الله تصارع مع يعقوب فضرب به يعقوب الأرض»^(٤)، وقولهم في بعض دعاء صلواتهم: «إنتبه كم تنام يا رب استيقظ من رقدتك»^(٥) فتجراؤا على رب العالمين بهذه المناجاة القبيحة وكأنهم يخبرونه أنه قد اختار الخمول لنفسه فكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [النسرة ٢٥٥]، وكذبهم على لسان نبيه بقوله:

(١) حربي، محمد (ابن تيمية وموقفه من أهم المشرق والديانات في عصره) (ص ٣٦١)، وما بعدها حيث أضاف ردوداً أخرى لمن أراد الاستزادة.

(٢) لتوراة، التكوين (٢: ١-٤).

(٣) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص ٤١٩)، تحقيق: د محمد الحاج.

(٤) التوراة، التكوين (٣٢: ٢٥-٢٧).

(٥) المزامير (٣٥: ٢٣).

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [شورى ٥١]، وقوله مخاطباً موسى: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ [الأعراف ١٤٣]

وعندهم في توراتهم: «أن موسى صعد الجبل مع مشايخ أمته فأبصروا لله جهرة وتحت رجله كرسى منظره كمنظر البلور، ويسمونه بلغتهم (السبقير) وهذا من كذبهم وافترائهم على الله»^(١).

وذكر ابن القيم أيضاً أن اليهود كانوا يتخذون أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله يحرمون عليهم ويحلون لهم فيأخذون بتحريمهم وتحليلهم. ولا ينتفتون. هل ذلك التحريم والتحليل من عند الله تعالى أم لا؟ ثم ذكر قول عدي بن حاتم: «أتيت رسول الله ﷺ فسألته عن قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [نوبة ٣١]، فقلت يا رسول الله ما عبدوهم. فقال: حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فأطاعوهم، فكانت تلك عبادتهم إياهم» رواه الترمذي^(٢). وغيره.

(١) ابن القيم (هداية الخباري) (ص ١٨٤-١٨٥)، تحقيق: د. محمد الحجاج .. بتصريف.

(٢) عدي بن حاتم ولد الجود المشهور، وينتهي نسب إلى طيس الطائي، كان من رؤساء البصريين الذين دخلوا في الإسلام. وقد كان الرئيس لمطاع في قومه. صحابي جليل، وروى عن النبي ﷺ، يقول عن نفسه: «ما أقيمت الصلاة منذ أسلمت إلا وأنا على وضوء» وقد جاء بصداقات قومه إلى أبي بكر الصديق بعد وفاة النبي ﷺ. حضر فتح المذائن، وشهد مع علي رضي الله عنه الجمل وصفين وبهروك. ومات بعد ذلك بالكوفة سنة ٦٨ هـ. وقيل أنه عاش مائة وثمانين سنة. العسقلاني، أحمد بن حجر (تهذيب التهذيب) (٧/ ١٤٧) تحقيق مصطفى عبد القادر عطاء، وابن القيم (هداية الخباري) (ص ٢٦٥)

بتحقيق د محمد الحجاج

(٣) أشار ابن القيم إلى أن هذا النص من رواية الترمذي وغيره وذلك في كتابه (إعانة للذهبي) (٢/ ٢٩٤) ولصحيح ابن روية الترمذي كما وقفت عليها هي عن عدي بن حاتم قال «أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال يا عدي اطرحهك هذا الوثن وسمعت يقرأ من سورة براءة اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله قال أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه» محمد بن عيسى (الجامع الصحيح ٥١/ ٢٧٨)، كتب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، حديث رقم (٣٠٩٥)، وذكر الترمذي بأنه حديث غريب.

ثم عقب ابن القيم قائلاً: «وهذا من أعظم تلاعب الشيطان بالإنسان الذي يتخذ من لم تضمن له عصمته ندأ الله يحرم عليه ويحلل له»^(١).

وابن القيم رحمه الله لم يتوسع في بيان عقيدة الألوهية عند اليهود لأنه ركز اهتمامه على إثبات نبوة محمد ﷺ وأنه خاتم الرسل والأنبياء كما ركز جهده في الدفاع عن عقيدة المسلمين بترسيخ قواعد التوحيد الخالص في نفوس الناس مما جعله يترك التفصيل في اعتقاد اليهود بالخلائق سبحانه وتعالى، ونجد هذا واضحاً إذ تفحصنا كتابه هداية الخباري في أجوبة اليهود والنصارى. وما سبق يتضح لنا أن اليهود لا يعبدون الله عز وجل حيث أنهم وقعوا في الشرك مرات ومرات ومن صور ذلك أيضاً أنهم عمدوا إلى أحد آله كنعان وصاغوه إلهاً لهم وأطلقوا عليه (يهوه) واعتبرت التوراة أن يهوه هو الذي أوحى إلى موسى هذه التوراة^(٢) وتروي التوراة أن يهوه هو إله آبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب وفي موضع آخر تروي التوراة أن يهوه هو اسم للموضع الذي ذبح فيه إبراهيم الكبش، والواقع أن يهوه هو أحد الآلهة الوثنية التي كان يعبدها بنو إسرائيل من بين الآلهة المتعددة التي كان يعبدها سكان آسيا^(٣)، وهذا هو ديدن اليهود يعمدون دائماً إلى الشرك فيتخذون الأصنام والأحبار والرهبان أرباباً من دون الله بالإضافة إلى أنهم يصفون الله بصفات لا تليق بجلاله تعالى فشبهوه بالبشر حتى كأنهم لم يوهبوا نعمة التفكير والنظر فصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقْلَبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيِّنَّا أَطْعَمَنَا اللَّهُ وَأَطْعَمَنَا الرَّسُولَ * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطْعَمْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأعراف ٦٦-٦٨].

(١) ابن القيم (إغاثة اللهفان) (٢/ ٢٩٤)، تحقيق: طه سعد.

(٢) عند الحافظ، محمد أحمد دياب (أصواء على اليهودية من خلال مصادرها) (ص ٥١).

(٣) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة.

المطلب الثاني

نقد ابن القيم لعقيدة النسخ والبداء عند اليهود

لقد كان منهج ابن القيم رحمه الله في بيانه لعقيدة النسخ والبداء عند اليهود يسير وفق منهج القرآن بما يستعين به من أدلة نقلية من وحي آيات الكتاب الكريم في بيان جواز النسخ في الشرائع، واستخدامه أيضاً لمنهج التحليل والنقد وأحياناً أخرى بتناوله للمنهج العقلي الذي يدل على بطلان قولهم بعدم جواز النسخ.

وقبل أن نبحر في منهجه رحمه الله إزاء هذه القضية يجدر بنا أن نتعرف على معنى النسخ في اللغة والاصطلاح كما وضعه العلماء المسلمون.

النسخ في اللغة: النسخ يأتي بمعنى الإزالة^(١) ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج ٥٢] ومنه قولهم: نسخت الشمس الظل ونسخ الشيب الشباب.

ويأتي النسخ أيضاً بمعنى التبديل^(٢) ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ [سج ١٠١] ويأتي أيضاً بمعنى النقل والتحويل كالنقل من موضع إلى موضع وكتناسخ المواريث يعني تحويلها من قوم إلى قوم^(٣)

النسخ في الاصطلاح: وقد عرف بتعاريف كثيرة، ولسنا هنا بصدد استعراضها لأن الهدف هو الوقوف على المعنى الاصطلاحي الذي يصور لنا النسخ في الشرع حيث

(١) الزركشي، محمد بن عبد الله (البرهان في علوم القرآن) (٢/ ٢٩)، والزرقاتي، محمد عبد العظيم، (مأهل يعرفان) (٢/ ١٧٥).

(٢) الزركشي، محمد بن عبد الله (البرهان في علوم القرآن) (٢/ ٢٩).

(٣) الزركشي، محمد بن عبد الله (البرهان في علوم القرآن)، والزرقاتي، محمد عبد العظيم (مأهل يعرفان) (٢/ ١٧٥).

عرف بأنه: (رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي)^(١).

الفرق بين النسخ والبداء:

البداء (بفتح الباء) يطلق في لغة العرب على معنيين متقاربين أحدهما:

الظهور بعد الخفاء ومنه قوله سبحانه: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ آيَاتِهِ مَا كُنُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الرعد ١٧] وقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ [غاثية ٢٣] والآخر: نشأة رأي جديد لم يكن موجوداً، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتٍ لِيَسْجُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف ٣٥] أي نشأ لهم في يوسف رأي جديد هو أن يسجن سجناً وقتياً، وهذان المعنيان متقاربان للبداء وكلاهما مستحيل على الله تعالى^(٢).

قال الشهرستاني: «واليهود تدعي أن الشريعة لا تكون إلا واحدة وهي ابتدأت بموسى، وتمت به، فلم تكن قبله شريعة إلا حدود عقلية وأحكام مصلحية ولم يميزوا النسخ أصلاً، قالوا فلا يكون بعده شريعة أصلاً لأن النسخ في الأوامر «بداء» ولا يجوز البداء على الله»^(٣) وهنا نقول إذا كان اليهود لا يؤمنون بالنسخ فلماذا يقولون أن الله عز وجل قد أمر إبراهيم أن يذبح ابنه اسحاق ثم بعد ذلك أنزل له كبشاً، أليس هذا بنسخ؟!^(٤).

ومع ذلك فقد استبعد اليهود وقوع النسخ في الشريعة، فمنهم من أبطله ولم يجعله ممكناً ومنهم من أجازاه إلا أنه لا يمكن وقوعه، قال ابن حزم: «وعنده حجة من أبطل النسخ أن قالوا: إن الله عز وجل يستحيل منه أن يأمر بالأمر ثم ينهى عنه ولو كان كذلك لعاد الحق باطلاً والطاعة معصية والباطل حقاً والمعصية طاعة»^(٥). وقد رد ابن

(١) الزرقاني، محمد عبدالعظيم، (مأهل العرفان) (٢/ ١٧٦).

(٢) الزرقاني، محمد عبدالعظيم، (مأهل العرفان) (٢/ ١٨٠، ١٨١).

(٣) الشهرستاني، محمد بن عبدالكريم، (الملل والنحل) (١/ ٢٥١)، تحقيق أمير مها وعلي قاعور.

(٤) ابن حزم، علي بن أحمد، (المصل في المثل ولأهواء والنحل) (١/ ١٨٠)، تحقيق د. محمد إبراهيم نصر،

وعبدالرحمن حميرة

حزم على هذه الحجة واعتبرها ضعيفة لا تقوم على ساق قائلاً: «من تدبر أفعال الله كلها، وجميع أحكامه وآثاره تعالى في هذا العالم تيقن بطلان قولهم هذا، لأن الله تعالى يحيي ثم يميت ثم يحيي وينقل الدولة من قوم أعزّه فيذلهم إلى قوم أذلّه فيعزهم، ويمح من شاء ما شاء من الأخلاق الحسنة والقيحة: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣].

وللدلالة على بطلان قول اليهود بإنكار النسخ، سار ابن القيم وفق ما يلي:

أولاً: منهج القرآن:

وقد عارض ابن القيم إنكار اليهود للنسخ وذلك بالاستعانة بما ورد في القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [سورة البقرة: ١٠٦-١٠٧].

فأخبر سبحانه أن عموم قدرته ومملكته وتصرفه في مملكته وخلقه لا يمنعه أن ينسخ ما يشاء، ويثبت ما يشاء كما أنه يحو من أحكامه القدريّة الكونيّة ما يشاء ويثبت فهكذا، أحكامه الدينيّة الأمرية ينسخ منها ما يشاء ويثبت منها ما يشاء^(١)

وقد عارضهم ابن القيم رحمه الله حينما قالوا أن الرب محجور عليه في نسخ الشرائع حيث حجروا عليه سبحانه أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وجعلوا هذه الشبهة الشيطانية ترساً لهم في جحد نبوة محمد ﷺ وقرروا ذلك بأن نسخ يستلزم البدء وهو على الله محال، فأورد ابن القيم دليلاً من كتاب الله تعالى يكذبهم فيما ادعوه، قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلَ عَلَى

(١) المرجع السابق (١/ ١٨٠)

(٢) ابن القيم (إعانة اللّهفان) (٢/ ٢٩٩-٣٠٠) تحقيق طه عبدالرؤوف سعد

نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَمَنْ
افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كُذُوبًا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا
مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٣﴾ ٩٤

ومن خلال هذه الآية يستدل ابن القيم رحمه الله على بيان كذبهم الصريح في
إبطال النسخ مبيناً أن الله سبحانه وتعالى أخبر أن الطعام كله كان حلالاً لبني إسرائيل،
وقبل نزول التوراة، سوى ما حرم إسرائيل على نفسه منه، ومعلوم أن بني إسرائيل
كانوا على شريعة أبيهم إسرائيل وملته، وأن الذي كان لهم حلالاً إنما بإحلال الله
تعالى له على لسان إسرائيل والأنبياء بعده إلى حين نزول التوراة ثم جاءت التوراة
بتحريم كثير من لماكل التي كانت حلالاً لبني إسرائيل، وهذا محض النسخ، فقوله
تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ أي كانت حلالاً لهم قبل نزول التوراة، وهم
يعلمون ذلك، ثم قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ هل
تجدون فيها أن إسرائيل حرم على نفسه ما حرمة التوراة عليكم؟ أم تجدون فيها تحريم
ما خصه بالتحريم؟ وهي لحوم الإبل والبانها خاصة، وإذا كان إنما حرم هذا وحده
وكان ما سواه حلالاً له ولبنيه، وقد حرمت التوراة كثيراً منه وظهر كذبكم وافترائكم
في إنكار نسخ الشرائع، والحجر على الله تعالى في نسخها^(١).

ثانياً: منهج التحليل:

وقد استخدم ابن القيم رحمه الله منهج التحليل والنقد في رده على الأمة
الغضبية^(٢) حينما قالوا: «أن التوراة لم تأت بإباحة محظور وإنما حظرت أموراً كانت
مباحة من قبل، والنسخ الذي نتكره ونمنع منه هو ما أوجب إباحة محظور، لأن تحريم

(١) ابن القيم (إغاثة اللهفان) (٢/ ٢٩٥)، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد

(٢) كثيراً ما يطلق عليهم هذا اللفظ استناداً لقول النبي ﷺ اليهود مغضوب عليهم والبصاري ضالون أخرجهم
لترمذي، والحديث صحيح.

نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَمَنْ
افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كُذُوبًا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا
مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٣﴾ ٩٤

ومن خلال هذه الآية يستدل ابن القيم رحمه الله على بيان كذبهم الصريح في
إبطال النسخ مبيناً أن الله سبحانه وتعالى أخبر أن الطعام كله كان حلالاً لبني إسرائيل،
وقبل نزول التوراة، سوى ما حرم إسرائيل على نفسه منه، ومعلوم أن بني إسرائيل
كانوا على شريعة أبيهم إسرائيل وملته، وأن الذي كان لهم حلالاً إنما بإحلال الله
تعالى له على لسان إسرائيل والأنبياء بعده إلى حين نزول التوراة ثم جاءت التوراة
بتحريم كثير من لماكل التي كانت حلالاً لبني إسرائيل، وهذا محض النسخ، فقوله
تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ أي كانت حلالاً لهم قبل نزول التوراة، وهم
يعلمون ذلك، ثم قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ هل
تجدون فيها أن إسرائيل حرم على نفسه ما حرمة التوراة عليكم؟ أم تجدون فيها تحريم
ما خصه بالتحريم؟ وهي لحوم الإبل والبانها خاصة، وإذا كان إنما حرم هذا وحده
وكان ما سواه حلالاً له ولبنيه، وقد حرمت التوراة كثيراً منه وظهر كذبكم وافترائكم
في إنكار نسخ الشرائع، والحجر على الله تعالى في نسخها^(١).

ثانياً: منهج التحليل:

وقد استخدم ابن القيم رحمه الله منهج التحليل والنقد في رده على الأمة
الغضبية^(٢) حينما قالوا: «أن التوراة لم تأت بإباحة محظور وإنما حظرت أموراً كانت
مباحة من قبل، والنسخ الذي نتكره ونمنع منه هو ما أوجب إباحة محظور، لأن تحريم

(١) ابن القيم (إغاثة اللهفان) (٢/ ٢٩٥)، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد

(٢) كثيراً ما يطلق عليهم هذا اللفظ استناداً لقول النبي ﷺ اليهود مغضوب عليهم والبصاري ضالون أخرجهم
لترمذي، والحديث صحيح.

الشيء إنما هو لأجل ما فيه من المفسدة»^(١).

ثالثاً: منهج النقد:

وكان رد ابن القيم بتفكيك هذا النص ونقده وذلك بقوله: إن إباحة الشيء في الشريعة تابع لعدم مفسدته، إذ لو كانت فيه مفسدة راجحة لم تأت الشريعة بإباحته، فإذا حرمته الشريعة الأخرى وجب قطعاً أن يكون تحريمه فيها هو المصلحة كما كان إباحته في الشريعة الأولى هو المصلحة، فإن تضمن إباحة الشحوم المحرمة في الشريعة لأولى إباحة لمفاسد - وحاشا لله - تضمن تحريم المباح في الشريعة الأولى تحريم المصالح وكلاهما باطل قطعاً.

ويتابع ابن القيم نقده لما قالوا قائلًا: لا يخلو المحرم إما أن يكون تحريمه لعينه وذاته بحيث تمنع إباحته في زمان من الأزمنة، وإما أن يكون تحريمه لما تضمنه من المفسدة في زمان دون زمان ومكان دون مكان، وحال دون حال.

فإن كان الأول، لزم أن يكون ما حرمته التوراة محرماً على جميع الأنبياء في كل زمان ومكان، من عهد نوح إلى خاتم الأنبياء عليهم السلام.

وإن كان الثاني، ثبت أن التحريم والاختلاف تابعان للمصالح وإنما يختلفان باختلاف الزمان والمكان والحال، فيكون الشيء الواحد حراماً في ملة دون ملة وفي وقت دون وقت وفي مكان دون مكان.

ألا ترى أن تحريم السبت لو كان لعينه لكان حراماً على إبراهيم ونوح وسائر النبيين؟

وكذلك ما حرمته التوراة من المطاعم والمناكح وغيرها لو كان حراماً لعينه وذاته لوجب تحريمه على كل نبي وفي كل شريعة.

(١) ابن القيم (إغاثة اللهفان) (٢/٢٩٨).

ويختتم ابن القيم رحمه الله رده ونقده قائلاً: «إذا كان الرب تعالى لا حجر عليه بل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ويتلى عباده بما يشاء، ويحكم ولا يحكم عليه، فما الذي يحيل عليه ويمنعه أن يأمر أمة بأمر من أوامر الشريعة ثم ينهى أمة أخرى عنه أو يحرم محرماً على أمة ويبحله لأمة أخرى؟»^(١)

رابعاً: منهج العقل:

وفي موضع آخر نجد الإمام ابن قيم الجوزية يستخدم المنهج العقلي ويستدل به على جواز النسخ وبطلان قولهم بعدمه، ويظهر هذا عندما يطرح عليهم سؤاله الذي يقول فيه للأمة الغضبية: هل تقرون أنه كان قبل التوراة شريعة أم لا؟ فهم لا ينكرون أن يكون قبل التوراة شريعة فيقال لهم: فهل رفعت التوراة شيئاً من أحكام تلك الشرائع المتقدمة أم لا؟! فإن قالوا: لم ترفع شيئاً فقد جاهرُوا بالكذب والبهت، وإن قالوا قد رفعت بعض الشرائع المتقدمة فقد أقروا بالنسخ قطعاً^(٢) ومن لملاحظ في عرض ابن القيم لمسألة النسخ أنه نقل كثيراً من الحجج عن السموأل من كتابه (إنعام اليهود) (ص ٨٦) وما بعدها، وكان الرد على تلك الحجج وفق المنهج العقلي ومن ذلك القول لهم: هل أنتم اليوم على ما كان عليه موسى عليه السلام؟ فإن قالوا: نعم، قلنا أليس في التوراة أن من مس عظماً أو وطئ قبراً أو حضر ميتاً عند موته فإنه يصير من النجاسة بحال لا مخرج له منها إلا برماد البقرة التي كان الإمام الهاروني يحرقها؟! فلا يمكنهم إنكار ذلك..

فنقول لهم: هل أنتم اليوم على ذلك؟ فيقولون: لا نقدر عليه، فنقول لهم: لم جعلتم أن من مس العظم والقبر والميت طاهر يصلح للصلاة والذي في كتابكم خلافه؟ فإن قالوا: لأننا عدمننا أسباب الطهارة وهي رماد البقرة والإمام المطهر المستغفر، فيقال لهم: فهل أغناكم عدمه عن فعله، أو لم يغنكم؟ فإن قالوا: أغنانا. قيل

(١) ابن القيم (إعانة اللهيان) (٢/٢٩٨-٢٩٩) بتصرف، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد

(٢) ابن القيم (إعانة اللهيان) (٢/٢٩٦)

لهم قد تبدل الحكم الشرعي من الوجوب إلى إسقاطه لمصلحة التعذر، وكذلك تبدل الحكم الشرعي بنسخه لمصلحة النسخ فإنكم إن بنيتم على اعتبار المصالح والمفاسد في الأحكام فلا ريب أن الشيء يكون مصلحة في وقت دون وقت وفي شريعة دون أخرى. كما كان تزويج الأخ بالأخت مصلحة في شريعة آدم عليه السلام ثم صار مفسدة في سائر الشرائع. وكذلك إباحة العمل يوم السبت كان مصلحة في شريعة إبراهيم عليه السلام ومن قبله في سائر الشرائع ثم صار مفسدة في شريعة موسى عليه السلام، وأمثال ذلك كثيرة..

وإن قلتم لا نستغني في الطهارة عن ذلك الطهور فقد أقررتم بأنكم الأنجاس أبداً ما دمتم لا تقدرون على سبب الطهارة، فإن قالوا: نعم الأمر كذلك، قيل لهم. فإذا كنتم النجاساً على مقتضى أصولكم فما بالكم تعتزلون الحائض بعد انقطاع الحيض وارتفاعه سبعة أيام اعتزلاً لا تفرطون فيه إلى حد أن أحدكم لو لمس ثوبه ثوب المرأة لاستنجستموه مع ثوبه. فإن قلتم ذلك من أحكام التوراة قبل لكم ليس في التوراة أن ذلك يراد به الطهارة، فإذا كانت الطهارة قد تعذرت عندكم والنجاسة التي أنتم عليها لا ترتفع بالغسل فهي إذاً أشد من نجاسة الحيض. ثم إنكم ترون أن الحائض طاهر إذا كانت من غير مللتكم ولا تنجسون من لمسها ولا الثوب الذي تلمسه فتخصيص هذا الأمر - أعني نجاسة الحيض بطائفتكم - مما ليس في التوراة فهذا كله منكم نسخ أو تبديل! ^(١)

وهناك من الأمور الكثيرة التي نقلها ابن القيم عن السموأل حول عقيدة اليهود في النسخ والبداء وطريقته في إبطال قولهم بعدم جواز النسخ ومن ذلك أيضاً قوله: «ومن العجب أن هذه الأمة الغضبية تحجر على الله تعالى أن ينسخ ما يشاء من شرائعه وقد تركوا شريعة موسى عليه السلام في أكثر مما هم عليه وتمسكوا بما شرعه لهم أحبارهم وعلمائهم» ^(٢).

(١) سموأل بن يحيى المغربي (إفحام اليهود) (ص ٩٣، ص ٩٤) وقد نقل عنه هذا ابن القيم (إعانة اللهدين)

(٢) (٢٩٦، ٢٩٧) علماً بأن ابن القيم رحمه الله لم يعز ما نقله للسموأل صراحة لأن طريقة التقاضي في

التأليف عدم الإشارة للمواضع التي ينقلونها منها

(٢) ابن القيم (إعانة اللهدين) (٢/٣٠٠) وهي كما نقلها عن السموأل في (إفحام اليهود) (ص ٩٦-٩٩)

فمن ذلك أنهم يقولون في صلاتهم ما ترجمته: «اللهم اضرب ببوق عظيم لفيفنا واقبضنا جميعاً من أقطار الأرض إلى قدسك، سبحانك يا جامع شتات قوم إسرائيل»^(١).

ويقولون كل يوم ما ترجمته: «أردد حكمانا كالأولين، ومشيرينا كالأتداء وابن أورشليم قرية قدسك في أيامنا وأعزنا بابتنائها سبحانك يا باني أورشليم»^(٢). فهذا قولهم في صلاتهم ومع علمهم بأن موسى وهارون عليهما السلام لم يقولوا شيئاً من ذلك، ولكنها فصول لفقوها بعد زوال دولتهم^(٣).

وكذلك صيامهم، كصوم إحراق بيت المقدس وصوم حصاره وصوم صلب هامان التي جعلوها فرضاً لم يصممها موسى عليه السلام وليس شيء من ذلك في التوراة وإنما وضعوها لأسباب اقتضت وضعها عندهم، وهذا مع أن في التوراة: «لا تزيدوا على الأمر الذي أنا موصيكم به شيئاً ولا تنقصوا منه شيئاً»^(٤). ويبطل ابن القيم شبهتهم في إنكار النسخ بقوله: «وقد تضمنت التوراة أوامر كثيرة جداً وهم مجمعون على تعطيلها وإلغائها فيما أن تكون منسوخة بنصوص أخرى من التوراة أو ينقل صحيح عن موسى عليه السلام أو باجتهاد علمائهم وهي على التقادير الثلاث قد بطل قولهم بإنكار النسخ». ويتابع ابن القيم «أنه من المعجب أن أكبر تلك الأوامر التي هم مجمعون على عدم القول والعمل بها إنما يستندون فيها إلى أقوال علمائهم وأمرائهم، وقد اتفقوا على تعطيل الرجم للزاني وهو نص في التوراة وتعطيل أحكام كثيرة منصوصة في التوراة»^(٥).

(١) المرجع السابق

(٢) المرجع السابق

(٣) المرجع السابق

(٤) ابن القيم (إعانة اللهقان) (٢/ ٣٠١)، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد.

(٥) ابن القيم (إعانة اللهقان) (٢/ ٣٠١)، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد.

هذا وقد أورد ابن القيم كثيراً من الأدلة والبراهين التي تثبت بطلان قولهم في عدم جواز النسخ وقد ظهر منهجه رحمه الله واضحاً في ذلك، وما ذكرته من تلك الأدلة أرى أنه كاف لاستيفاء الغرض الذي من أجله بينت منهجه في بيان تلاعب اليهود في عقيدة النسخ والذي يجعلون فيه لأخبارهم ورهبانهم الحق في إحلال ما يرونه حلالاً وتحريم ما يرونه حراماً وإن كان نص التوراة بخلافه، في حين يجبرون على الله تعالى وتقدس أن ينسخ ما يريد من شريعته وهو تعالى القائل في محكم التنزيل: ﴿مَا نُنسخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٦-١٠٧].

النتيجة:

إن موقف ابن القيم هو وقوع النسخ في الشرائع السابقة وفي شريعة يعقوب عليه السلام وعليه فلا مانع أن ينسخ الله شريعة موسى بشريعة محمد ﷺ.

المبحث الثاني

عقيدة اليهود في النبوة

المطلب الأول

بيان ابن القيم لموقف اليهود من أنبيائهم

أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم بأنه أرسل الرسل والأنبياء إلى مختلف الأمم الغابرة فقال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [روم: ٢٤].

وكان كل واحد منهم صلوات الله عليهم يدعو قومه لعبادة الله الواحد الأحد.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْنَأُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَرِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [سج. ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥٠].

لذا كان من الفروض التي فرضها الله سبحانه على عباده واعتبرت ركناً من أركان الدين الإيمان بالرسول والأنبياء جميعهم، وتصديقهم في أخبارهم، وطاعتهم في أوامرهم ونواهيهم، قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

واليهود شأنهم شأن غيرهم من الأمم، أرسل الله إليهم الرسل والأنبياء لنفس الهدف وهو عبادة الله وحده، إلا أنهم ثاروا في وجه أنبيائهم ورفضوا طاعتهم، وانسلخوا من عقيدتهم وهاجموه سواء بالألفاظ التي يتعفف اللسان عن ذكرها، أو بوصفهم بصفات لا تليق بمقامهم عليهم صلوات الله وسلامه بل إنهم هاجموا أنبياءهم بالقتل أحياناً أخرى، واستبد بهم الكفر فعبدوا غير الله سبحانه، حتى في ظل وجود الأنبياء بينهم، ويجدر بنا هنا أن نذكر بعض آيات الله تعالى التي تحدثت عن سلوكهم مع الله سبحانه ومع رسله وأنبيائه عليهم السلام، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ أَيْنَ مَا تَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَتَةَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

وقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ نَايَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿لَعَنَ

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا
وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٨﴾ ٧٩

وبالإضافة إلى هذه الآيات سنورد بعض ما اقتبسه ابن القيم رحمه الله من كتبهم حتى لا يكون البحث في هذه القضية مبتوراً وحتى نستطلع منهج ابن القيم من خلال بيانه لعقيدة اليهود في أنبيائهم. والحقيقة أنهم وصفوا الأنبياء في توراتهم بأقذع الأوصاف وأحط الأخلاق على الرغم من أن الأنبياء عليهم صلوات الله هم صفوة البشر وخيرة الله من عباده، لكن اليهود لعنهم الله أرادوا أن يبرروا لأنفسهم ارتكاب الجرائم فما كان منهم إلا أن قدحوا في الأنبياء وأذوهم. يقول ابن القيم رحمه الله «وفي التوراة التي بأيديهم من التحريف والتبديل، وما لا تجوز نسبته إلى الأنبياء ما لا يشك فيه ذو بصيرة. والتوراة التي أنزلها الله على موسى بريئة من ذلك، ففيها عن لوط رسول الله أنه خرج من المدينة وسكن في كهف الجبل، ومعه بنتاه فقالت الصغرى للكبرى: قد شاخ أبونا فارقدي بنا معه لناخذ منه نسلاً، فرقدت معه الكبرى، ثم الصغرى، ثم فعلنا ذلك في الليلة الثانية. وحملنا منه بولدين موآب وعمون»^(١).

وهنا يستنكر ابن القيم فحش اليهود هذا قائلاً: «هل يحسن أن يكون نبي رسول كريم على الله يوقعه سبحانه في مثل هذه الفاحشة العظيمة في آخر عمره ثم يذيعها عنه ويحكيها للأمم؟»^(٢) ويذكر ابن القيم تبريرهم على إيرادهم هذه القصة في توراتهم قولهم أن نكاح الأقارب لم يكن حراماً.

وهنا تظهر قدرة ابن القيم العقلية في الرد عليهم من خلال توراتهم التي تكذبهم

(١) ابن القيم، (هداية الخيارى) (ص ١٧٤) تحقيق د. محمد الحاج، وقد وردت قصة لوط هذه في الأصحاح التاسع عشر من سفر التكوين ضمن الفقرات من ٣٠-٣٨.

(٢) ابن القيم (هداية الخيارى) (ص ١٧٤) تحقيق د. محمد الحاج.

لما ثبت فيها من تحريم نكاح الأخت وذلك في النص الثاني «إن إبراهيم الخليل خاف في ذلك العصر أن يقتله المصريون، حسداً له على زوجته سارة فأخفى نكاحها، وقال: هي أختي، علماً منه بأنه إذا قال ذلك لم يبق للظنون إليها سبيل»^(١) حيث يدل ابن القيم رحمه الله من خلال هذا النص على تحريم نكاح البنت قائلاً: «وهذا أظهر دليل على أن تحريم نكاح الأخت كان ثانياً في ذلك الزمان فما ظنك بنكاح البنت الذي لم يشرع ولا في زمن آدم عليه السلام؟»^(٢).

ومن الملاحظ أن ابن القيم قد أثبت فساد قولهم في لوط من نفس المصدر الذي استقى اليهود منه افتراءهم على لوط عليه السلام وهذا يوضح قدرة ابن القيم العقلية على إثبات تناقضهم في القول وبيان كذبهم ويدلل ابن القيم أيضاً على قدحهم في أنبيائهم وإيذائهم لهم، ما رموا به موسى عليه السلام فأذوه في حياته، ونسبوه إلى ما براه الله تعالى منه، ونهى الله سبحانه هذه الأمة عن الاقتداء بهم في ذلك حيث يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَحْيُهُمْ﴾ [الحرب ٦٩]. ويورد ابن القيم في كتابه^(٣) ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: (كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراً، ينظر بعضهم إلى سواة بعض، وكان موسى عليه السلام يغتسل وحده، فقالوا: والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه أدر^(٤)، قال فذهب مرة يغتسل، فوضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوب موسى، قال: فجمع موسى يأمره، يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى نظرت بنو إسرائيل إلى سواة موسى، وقالوا: والله ما بموسى من بأس، فقام

(١) التوراة، التكوين (٢٠: ١-٣).

(٢) ابن القيم: (إعانة اللهman) (٢/ ٣١٤) تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد

(٣) ابن القيم، (إعانة اللهman) (٢/ ٣١١) نفس المحقق.

(٤) أدر أي منتهج الخصية لتسرب سائل في علقها، ابن القيم (إعانة اللهman) (٢/ ٣١٢) وحاء تعريفها كذلك في (لسان العرب)، لابن منظور (١/ ٩٤-٩٥) مادة (أدر).

الحجر بعد حتى نظر إليه، فأخذ ثوبه، وطفق بالحجر ضرباً^(١)

قال أبو هريرة: «والله إن بالحجر لندباً»^(٢) ستة أو سبعة من أثر ضرب موسى الحجر» وأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وذكر ابن القيم ما قاله سفيان بن حسين عن الحكم بن جبير عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب في قوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى﴾ قال: «صعد موسى وهارون الجبل، فمات هارون، فقالت بنو إسرائيل: أنت قتلتها، وكان أشد حباً لنا منك وألين لنا منك، وأذوه بذلك». وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [ص: ٥]، ويعلق بن القيم قائلاً: فإنها جملة في موضع الحال: أي أتوذونني وأنتم تعلمون أني رسول الله إليكم، وتأمل قوله تعالى: ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ وذلك أبلغ العناد^(٣).

ويذكر أيضاً قول المسيح في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ إِسْرَائِيلَ

(١) هذا اللفظ الذي أورده ابن القيم مأخوذ من مسند الإمام أحمد بن حنبل (٢/ ٣١٥)، أما رواية البخاري

فقد وقفت عليها باللفظ التالي: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ (إن موسى كان رجلاً حياً ستر لا يرى من جلده شيء استحياء منه فأذاه من بني إسرائيل فقالوا ما يستتر هذا التستر إلا من عيب يجلده إما برص وإما أذرة وإما آفة وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلأ يوماً وحده، فوضع ثيابه على حجر، ثم اعتسل، فما فرغ، أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن أحجر علما بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطب الحجر، فجعل بثوب ثوبي حجر. ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملا من بني إسرائيل فرأوه عرياناً من أثر ضربة ثلاث أو أربعاً أو حمداً فذلك قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ وكان عيبه وحيه^(٢) [الأحزاب: ٦٩] ورد هذا الحديث عند البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب ادخلوا سجداً وقولوا

حطة حديث رقم (٣٤٠٤) العسقلاني، ابن حجر، (فتح الباري شرح صحيح البخاري) (١/ ٣٦٦)

(٢) ندباً أي أثر الجرح، الباقي على الجلد الغير ورآبادي (القاموس المحيطة) (١/ ١٣١) فصل النون. باب لبء، مادة (ندب).

(٣) بن القيم (إعانة اللهمان) (٢/ ٣١٣) تحقيق طه سعد، (وهديّة البخاري)، (ص ٥٨٩، ٥٩٠) تحقيق د محمد الحاج.

إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٦٦﴾ كما أن هذه الأمة الغضبية - كما يصفها ابن القيم - قد نسبوا إلى عيسى عليه السلام السحر، وقالوا أنه ولد بغية، ونسبت أمه إلى الفجور، كما نسبوا إلى يوسف عليه السلام أنه حلّ تكة سراويله تكة سراويل سيدته، وأنه قعد منها مقعد الرجل من امرأته، وأن الحائط انشق به فرأى أباه يعقوب عليه السلام عاضاً على أنامله، فلم يقم حتى نزل جبريل عليه السلام، فقال: يا يوسف تكون من الزناة وأنت معدود عند الله تعالى من الأنبياء؟ فقال حيثنذ وهنا يقول ابن القيم معلقاً: «ومعلوم أن ترك الفاحشة عن هذا لا مدح فيه، فإن أفسق الناس لو رأى هذا لولى هارباً وترك الفاحشة»^(١).

وبعد أن ذكر لنا ابن القيم رحمه الله بعض النصوص الصريحة الواضحة التي تؤكد رمي اليهود للأنبياء بأقذع الأوصاف وأشنع الأخلاق، نجد مباشرة يعقب على قولهم ويفنده ويطله بالطريقة المقنعة حيث يعتمد على نصوص أخرى من التوراة تثبت عكس ذلك - كما شاهدنا سابقاً - أو ربما يعتمد فيه على حجته العقلية في إثبات فساد قولهم وجهل عقولهم، واختيارهم الكفر على الإيمان.

وقد بين ابن القيم عدم اكترائهم بما يرتكبونه من جرائم ومن ذلك أنهم قتلوا الأنبياء فقتلوا زكريا، وابنه يحيى، وخلقوا كثيراً من الأنبياء حتى قتلوا في يوم سبعين نبياً وأقاموا السوق في آخر النهار كأنهم لم يصنعوا شيئاً^(٢)، كما أنهم اجتمعوا على قتل المسيح وصلبه فصانه الله تعالى وأكرمه أن يهان على أيديهم وألقى شبهه على غيره فقتلوه وصلبوه، وراموا قتل خاتم النبيين مراراً عديدة والله عصمه منهم^(٣).

فما سبق يتضح لنا منهج ابن القيم في بيانه لموقف اليهود من أنبيائهم حيث اعتمد

(١) ابن القيم (إعانة للهمام) (٣١٥/٢) تحقيق طه سعد

(٢) ابن القيم (هداية الخباري) (ص ٢٥١ - ٤٦٦)

(٣) ابن القيم (هداية الخباري) (ص ٢٥١)، تحقيق د. محمد الحاج.

في رده، على النقل تارة حيث ظهر هذا في إيراد الحجج من كتاب الله سبحانه مستدلاً ومسترشداً بالآيات الكريمة أو من تناوله لنصوص توراتهم المحرفة التي أثبت فيها التناقض مرات عديدة، وتارة أخرى على المنهج العقلي من خلال إجابته ورده على افتراءاتهم الكاذبة تجاه الرسل والأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه.

وقد اهتم ابن القيم بقضية النبوة بصفة عامة حيث ظهر ذلك جلياً في كتابه هداية الحيارى مؤكداً فيه حقيقة النبوة ومثبتاً لها وراداً على منكريها بالحجة القوية والبيان الساطع ثم موضحاً الحكمة من إرسال الرسل والذي به ختم كتابه هداية الحيارى حيث يقول في ذلك: «فأهل الأرض كلهم في ظلمات الجهل والبغي إلا من أشرق عليه نور النبوة كما في المسند وغيره من حديث عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إن الله خلق خلقه في ظلمة وألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأ ضل»^(١)

ولذلك بعث الله رسله ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور. فمن أجابهم خرج إلى الفضاء والنور، ومن لم يجبههم بقي في الضيق والظلمة التي خلق فيها، وهي ظلمة الطبع، وظلمة الجهل، وظلمة الغفلة عن نفسه وكمالها وما تسعد به في معاشها ومعادها، فهذه كلها ظلمات خلق فيها العبد فبعث الله رسله لإخراجه منها إلى نور العلم والمعرفة والإيمان.

ويتابع ابن القيم مؤكداً أن من أخطأ هذا النور فإنه سيتقلب في ظلمات بعضها فوق بعض فيكون مدخله ومخرجه وقوله وعمله وقصده ظلمات، فلو أشرق له شيء من نور النبوة لكان بمنزلة إشراق الشمس على بصائر الخفاش^(٢).

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧٦/٢). الحديث صحيح، [المجلة].

(٢) الخفاش بصم الخاء وتشديد الغاء، طائر صغير لا يطير إلا ليلاً وفي ظلم الكهوف، (هداية الحيارى)

(ص ٥٩٢) تحقيق د محمد الحاج، ابن منظور (لسان العرب) (١٥٣/٤) باب الخاء، مادة (خفش)

بصائر غشاها النهار بضوئه ولائها قطع من الليل مظلم

يكاد نور النبوة يلمع تلك الأبصار ويخطفها لشدته وضعفها، فتهرب إلى الظلمات لموافقتها لها وملاءمتها إياها^(١) قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [سور. ٢٤٠].

المطلب الثاني

دراسة ابن القيم لعقيدة اليهود في عيسى عليه السلام

قبل أن نتحدث عن دراسة ابن القيم لهذه العقيدة يجدر بنا أن نتعرف على رسالة عيسى عليه السلام لبني إسرائيل.

لم يكن عيسى عليه السلام -بدعاً من الرسل، بل وافق طريقه طريق إخوته من الرسل الكرام، يدعو بني إسرائيل إلى عبادة الله وحده، كما هي دعوة الرسل من قبله، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الاب. ٢٥].

فكانت دعوة عيسى عليه السلام لبني إسرائيل هي عبادة الله وحده، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ سُبْحَانَتُ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مِأَمْرٌ تَنبِيءٌ بِأَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَتَمَّ تَوْفِيقِي كُنْتُ أَنْتَ لَرَقِيبٍ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة. ١١٧-١١٢].

ثم إن دعوته عليه السلام كانت خاصة ببني إسرائيل، حيث حدد القرآن الكريم

(١) ابن القيم (هداية الخيارى) (ص ٥٩١-٥٩٢) بتصرف، نفس المحقق.

هذه الخصوصية بقوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [ال عمران ٤٤٩] ثم حدد القرآن الكريم مهمة رسالة عيسى عليه السلام بأنها مكملة لما جاء به موسى والأنبياء من قبله عليهم السلام قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ تَوْرَاتٍ وَأَنبِيَاءَ الْإِنجِيلِ فِيهِ هُدًى وَتُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة ٤٦] فرسالة عيسى عليه السلام لم تكن ناسخة لشرعية موسى عليه السلام لذلك كانت شريعة التوراة هي الأصل وهي الإمام، قال تعالى: ﴿وَمَنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [الأحقاف ١٢] أما الإنجيل فلم تكن فيه شريعة متكاملة حيث جاء ببعض التخفيفات والتعديلات وهنا يؤكد سيد قطب رحمه الله في أن التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام وفيها الشريعة المنظمة لحياة الجماعة الإسرائيلية والمتضمنة لقوانين التعامل والتنظيم هي كتاب عيسى عليه السلام بالإضافة إلى الإنجيل الذي يتضمن إحياء الروح وتهذيب القلب وإيقاظ الضمير^(١)

ويبين سيد قطب أن أي دين لا بد أن يكون منهجاً كاملاً يربط حياة الناس بمنهج الله سبحانه، ويؤكد أنه لا يمكن أن ينفك عنصر العقيدة عن الشعائر التعبدية وعن القيم الخلقية، وأن أي انفصال لهذه المقومات فإنه يبطل عمل الدين في النفوس والحياة، وهذا ما حدث للمسيحية والذي على أثره وقع العداء بينهم وبين اليهود، وهنا يقول سيد قطب: «فلما وقع ذلك الانفصال في الدين المسيحي عجزت المسيحية عن أن تكون نظاماً شاملاً للحياة البشرية، واضطر أهلها إلى الفصل بين القيم

(١) سيد قطب هو سيد قطب إبراهيم حسين شاذلي. ولد في قرية موشة إحدى قرى محافظة أسيوط، وكانت ولادته سنة (١٩٠٦م)، اشتمل مدرساً بمدارس التوراة، وانتظم في شبابه مع حزب بوند حتى عام (١٩٤٢)، ثم تنظم عملياً في جماعة الإخوان المسلمين سنة (١٩٥٣م)، ولسيد قطب كثير من المقالات والكتب النقدية. وله ديوان شعري. وكان سيد رحمه الله من أوائل ضحايا البطش والتكيل بالجماعة، فسجن أكثر من مرة في سجون عبدالناصر، وعذب عذبا شديداً ثم حكم بالإعدام، وتم إعدامه سنة (١٩٦٦م)، ترك رحمه الله ٢٩ كتاباً على رأسها (الظلال) (الخاسر)، صلاح عبدالفتاح.

سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد (ص ١٩ - ص ٢٢)

(٢) سيد قطب (في ظلال القرآن) (١/٥٨٩)

وهذا يؤكد لنا أن دعوة عيسى عليه السلام لبني إسرائيل كانت تركز على الناحية الروحية، والسبب في ذلك كما يعزوه بعض الكتاب^١ إلى أن اليهود انحرفوا إلى المادة وأفرطوا في تهالكهم عليها تاركين تعاليم موسى عليه السلام، ومنكرين القيامة والحساب والعقاب مقبلين على الشهوات، مدعين أنهم شعب الله المختار وأنه لا صلة بين المخلوق والخالق إلا عن طريق الأحرار منحرفين بذلك عن الطريق الذي دعاهم إليه موسى عليه السلام فكان لا بد من مصلح يقوم حياتهم ويردهم إلى الدين الصحيح وإلى الحياة الروحية التي تهذب نفوسهم فكانت رسالة المسيح عليه السلام التي جاءت بأسس أخلاقية روحية يقوم عليها بناء تلك الشريعة.

إلا أن اليهود عندما رأوا تلك التعاليم^٢ تخالف طبائعهم الفاسدة بدأو، يكتنون

(١) نفس المرجع السابق، (١/ ٥٩٠-٥٩١).

(٢) من هؤلاء الكتاب، د. محمد الحاخ في كتابه (انصرافية من التوحيد إلى تثليث) (ص ٨٣)، والنجر، عبدالوهاب، (قصص الأنبياء) (ص ٤٦٧)، وشلي، أحمد (مقارنة لأديان - مسيحية) (ص ٤٦).

(٣) التعاليم التي تخالف طبائعهم - والتي يسيبها كفروا به - ومنها:

أ) دعوة عيسى عليه السلام لهم بإيراد الله بالعبودية وعدم الشرك به، قال تعالى ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ * ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمِمَّنْ مِنَّا إِلَهٌ وَإِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَسْأَلُوا عَمَّا يُقُولُونَ لَيَمَسُنَّ أَلْسِنُهُمْ مِنْهُم غَدَاتٍ أَلِيمٌ﴾ [مائدة ٧٢-٧٣]

ب) التشهير بسورة محمد ﷺ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُنشِرًا بَرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي إِنَّهُ أَحْمَدُ فَأَنذَرْتُهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف ٦٠] ولقد كره اليهود أن يكون نبي من العرب فعاربوا عيسى عليه السلام لأنه بشريه ﷺ.

ج) ومن تعاليمه أن الله لا يخص جنساً برعاية دون جنس، فهو كالشمس ترسل أشعتها للناس جميعاً سواء بسواء، وهذا يخالف لطبيعتهم الفاسدة في أنهم شعب الله المختار.

د) ومن التعاليم التي من أجلها كره اليهود عيسى عليه السلام أن أحل لهم الحصاد يوم السبت، ومع

لعداء لعيسى عليه السلام فتعرض عليه السلام لسخطهم ولم يؤمن به إلا لقليل منهم.

ويبين الدكتور شلي بأن عيسى عليه السلام ليس له أي ذكر في كتبهم أو حتى في تاريخهم الديني، وكذلك ليس لدعوته ولا لأحداث القبض عليه وصلبه أي ذكر فالذي يقرأ كتب اليهود لا يجد لعيسى بن مريم ذكراً، وهذا هو الذي حدا ببعض الغربيين إلى اعتبار عيسى شخصية خرافية فرضية ليست حقيقة وقعة أ.هـ.^(١)

ولقد تعمد اليهود إغفال ذكر عيسى بن مريم عليه السلام صراحة بهذا اللفظ في كتبهم إلا أنهم لم يغفلوا كلمة (المسيح) فقد وردت في التوراة، ولا يزال اليهود ينتظرونه، ويعتبرونه ملكاً عظيماً سيأتي ليجعل لهم السلطان على الأرض ويجعل جنسهم هو الجنس الأعظم بين أجناس البشر، فاليهود مجمعون على أن في التوراة بشارة بمخلص يأتي من بعد موسى عليه السلام، وهم بأسرهم لا ينكرون ذلك.^(٢)

ولقد كانت دراسة ابن القيم رحمه الله لعقيدة اليهود في المسيح عليه السلام تقوم أولاً على تأكيده بأن اليهود لا يذكرون وجوده ويدلل ابن القيم على ذلك بقوله: «ويؤمنون (أي اليهود) أن قائماً يقوم فيهم من ولد داود النبي، إذا حرك شفثيه

فكرة الذبائح من أجل الماخرة والتباهي، وهذمه عليه السلام لتعاليم الأحبار المصلحة ولتي كنت تعمل على جمع المال من الشعب، وطرده للباعة من ساحة المعد قائلاً: «إن المعد ليس سوقاً» إلى غير ذلك من التعاليم التي خالفت هوى اليهود مما أوجب عداءهم له عليه السلام، لحاج، محمد أحمد (نصرية من التوحيد في التثليث) (ص ٨٠-٨٨)، بتصرف، وشلي، أحمد (مقارنة الأديان - المسيحية) (ص ٤٦)، وعاشور، سيد محمد (اليهود في عصر المسيح) (ص ١٠١-١٠٤) بتصرف.

(١) شلي، أحمد (مقارنة الأديان - المسيحية) (ص ٧٦)، من الواضح أن د. شلي قد جانب الصواب عندما اعتبر أن عيسى ليس له أي ذكر في كتبهم والصحيح أن عيسى جاء ذكره في التعمود المضوع في نهاية القرن، التاسع عشر باسم (Palam).

(٢) شلي، د. أحمد (مقارنة الأديان - المسيحية) (ص ٧٦-٧٧).

بالدعاء مات جميع الأمم ولا يبقى إلا اليهود وهذا المنتظر بزعمهم هو المسيح^(١) الذي وعدوا به^(٢).

ثم يذكر ابن القيم ما قاله اليهود في العلامات الدالة على مجيئه ثم يعقب على كلامهم وهذه هي طريقة ابن القيم ومنهجها الذي لمسته. فهو يعرض أولاً أقوالهم ثم يفندوها ويرد عليها. ومن العلامات التي قالوها وعقب عليها ابن القيم قولهم الذي أورده رحمه الله في كتابه هداية الخياري^(٣) من أن الذئب والتيس يربضان معاً وأن

(١) المسيح: هو لغة مأخوذ من المسح (والمسح) هو امرأك يدك على الشيء السائل أو المشنطخ تريد إذهابه بذلك. كمسحك رأسك من الماء. مسحه بمسحه مسحاً، (والمسيح) يأتي بمعنى الصديق، وأصده بالعبرية مشيحاً، ومعناه المبارك. وبه لقب عيسى بن مريم عليه السلام لصدقه، وقيل لأنه كان سائحاً في الأرض لا يستقر. وقيل لأنه كان مسح يده على التعليل والأكمه والأبرص فيبرئه بذن الله، وقيل لأنه مسح بالبركة، أو لأنه كان مسح الرجل ليس لرجله أخص، أو لأنه خرج من بطن أمه بمسوحاً بدهن، وفضية لمسح بالزيت كن تقليداً سائداً في بلاد اشرق القديم، وكان الناس يعتقدون في أن البريت مقدس تكمن فيه قوة خارقة تنتقل إلى الشخص المسوح به. وقد كان المسح في بادئ الأمر مقصوراً على كهنة ليكون لهم مقدساً ثم انتقلت فكرة المسح للأنبياء ثم الملوك والأمراء ولذلك سموهم هؤلاء بالمسحاء وتعني المختارين والمباركين من قبل الله وكل من مسح به يكون مخلصاً للشعب وأن هذا المخلص يعرف بالمسيح، وتطورت فكرة الخلاص عند اليهود وأصبح لفظ المسيح يطلق على المخلص حيث اختمرت هذه الفكرة في عصر ما قبل مجيء المسيح عيسى بن مريم، وعندما جاء عيسى عليه السلام رأى اليهود أن هذا المولود الجديد سيكون هو المخلص، ولكن حاب فاهم. لأن عيسى عليه السلام جاء ليخلصهم من نفوسهم المريضة ويعلمهم الأخلاق الكريمة التي ندوها وراء ظهورهم، فاختلقت طريقهم مع طريقه فكفروا به وعادوه ولم يؤمن به إلا القليل الذين سموا (حوريين) حيث لم يكن الحواريون والمؤمنون بعيسى عليه السلام يدعون مسيحيين في زمانه، وقد أطلق عليهم هذا اللقب (مسيحيون) - أو مرة بولس في أبطاكية ثم أقر مجمع نيقية المعقد سنة (٣٢٥م) من أجل تمييزهم عن المؤمنين بوحداية الله وبشرية المسيح فصاروا يعرفون بالمسيحيين، ابن منظور، (لسان العرب) (١٣ ص ٩٨-٩٩)، (ق موسى الكتاب المقدس) (ص ٨٥٩-٨٨٩) وغريال شقيق (الموسوعة العربية) (ص ١٩٨١)، ورحمت الله لهدى (إظهار الحق) (٣/ ٧٣٠) من كلام المحقق د. ملكاوي في الهامش، وبنجار، عبدالوهاب (قصص الأنبياء) (ص ٤٤٩).

(٢) ابن القيم (هداية الخياري) (ص ٤٢٣)، و(إغاثة اللهفان) (٢/ ٣٠٩).

(٣) ابن القيم (هداية الخياري) (ص ٤٢٣).

البقرة وانذّب يرعيان جميعاً، وأن الأسد يأكل التبن كالبقر. وهنا يعقب ابن القيم قائلاً: «فلما بعث المسيح كفروا به عند مبعثه وأقاموا ينتظرون متى يأكل الأسد التبن كالبقر، حتى تصح لهم علامات مبعث المسيح»^(١)

ويسخر ابن القيم منهم مؤكداً أن الذي ينتظرونه هو المسيح الدجال^(٢) فهم يعتقدون - كما يذكر ابن القيم - أن هذا المنتظر متى جاءهم يجمعهم بأسرهم إلى القدس وتصير لهم الدولة، ويخلو العالم من غيرهم ويحجم الموت عن جنابهم المنيع مدة طويلة وقد عوضوا من الإيمان بالمسيح ابن مريم انتظار مسيح الضلالة الدجال فإنه هو الذي ينتظرونه حقاً، وهم عساكره، وأتبع الناس له، ويكون لهم في زمانه شوكة ودولة إلى أن ينزل مسيح الهدى ابن مريم فيقتل منتظرهم، ويضع هو وأصحابه فيهم السيوف حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر، فيقولان يا مسلم هذا يهودي ورائي تعال فاقتله^(٣)، فإذا نظف الأرض منهم ومن عباد الصليب، فحينئذ

(١) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص ٤٢٣).

(٢) لمسيح الدجال: وسمي بذلك لأن عيه مسحوة عن أن يبصر بها، والدجال أي الكذاب، وروى بعض محدثين المسيح بكسر الميم والتشديد في السين، وقيل المسيح لأنه مسح خلفه أي شوه، وقد روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده المتصل عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ ذكر الدجال بين ظهراني الناس فقال (إن الله تعالى ليس بأعور إلا وإن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عبة طائفة) وذكر أن اليهود إنما ينتظرون المسيح الدجال مسيح الضلالة ابن منظور (لسان العرب، ١٣/ ٩٩)، وابن القيم (هداية الحيارى) (ص ٤٢٤)، ومسلم بن الحجاج، (صحيح مسلم بشرح النووي) (٥٨/ ١٨) كتاب (٥٢) (الفتن) باب (٢٠) وهو باب ذكر الدجال وصفته، والحديث رقم (١٠٠).

(٣) ورد في هذا المعنى أحاديث صحيحة عن رسول الله ﷺ، وابن القيم هنا يؤكد أن قتل اليهود واختصاصهم هرباً من المسلمين حلف الشجر والحجر سيكون في عهد عيسى عليه السلام بعد نزوله آخر الزمان، عدماً أن لأحاديث لصحيفة الواردة لا تفيد ذلك بزمان معين سوى أن ذلك سيحصل قبل قيام الساعة، راجع الأحاديث في هذا المعنى عند البخاري في كتاب الجهاد والسير باب قتل اليهود، حديث رقم (٢٩٢٥، ٢٩٢٦) وعند الإمام مسلم كتاب الفتن باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل .. وأرقام الأحاديث من (٨٠-٨٢) كما هي عند الإمام مسلم).

يرعى الذئب والكبش معاً ويربضان معاً، وترعى البقرة والذئب معاً، ويأكل الأسد التبن، ويلقى الأمن في الأرض^(١).

وجاء المسيح عيسى بن مريم -عليه السلام- يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وينادي بتطهير النفوس والتمسك بالقيم الروحية ونحو ذلك فكذبوه وهموا بقتله فحفظه الله منهم.

وهنا يؤكد ابن القيم أنه مع علمهم أنه رسول الله تعالى إليهم إلا أنهم كفروا به بغياً وعناداً وراموا قتله وصلبه فصانه الله تعالى من ذلك ورفعاه إليه وطهره منهم. فأوقعوا القتل والصلب على شبهه. وهم يظنون أنه رسول الله عيسى عليه السلام، فانتقم الله تعالى منهم، ودمر عليهم أعظم تدمير^(٢).

ويعزو ابن القيم سبب تشتت اليهود وإتمام غضب الله عليهم هو تكذيبهم وكفرهم بالمسيح عليه السلام وفي هذا يقول: «ولم يزل أمر اليهود بعد تكذيبهم بالمسيح وكفرهم به في سفال ونقص إلى أن قطعهم الله تعالى في الأرض أمماً، ومزقهم كل ممزق، وسلبهم عزهم وملكهم، فلم يبق لهم بعد ذلك ملك إلى أن بعث الله تعالى محمداً ﷺ فكفروا به وكذبوه، فأتى عليهم غضبه، ودمرهم غاية التدمير، وألزمهم ذلاً وصغاراً لا يرفع عنهم إلى أن ينزل أخوه المسيح من السماء، فيستأصل شأفتهم، ويظهر الأرض منهم ومن عباد الصليب، قال الله تعالى: ﴿يُشَسِّمُ أَشْرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة ٢٩٠] فالغضب الأول بسبب كفرهم بالمسيح، والغضب الثاني بسبب كفرهم بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما»^(٣).

(١) ابن القيم (هداية الحارثي) (ص ٤٢٣-٤٢٤)

(٢) ابن القيم (إغاثة اللهفان) (٢/ ٢٩٤).

(٣) ابن القيم (إغاثة اللهفان) (٢/ ٢٩٤).

اليهود ينكرون معجزات عيسى عليه السلام وينسبون الألوهية إليه :

يبين ذلك ابن القيم قائلاً: «واليهود مجمعة أنه لم تظهر له معجزة، ولا بدت منه لهم آية، غير أنه طار يوماً، وقد هموا بأخذه، وطار على أثره آخر منهم، فعلاه في طيرانه، فسقط إلى الأرض بزعمهم»^(١). ومن أقوال اليهود في ذلك ما ورد في الإنجيل أنهم كانوا يقولون له وهو على الخشبة -بظنهم- «إن كنت المسيح فأنزل نفسك تؤمن بك»^(٢). يطلبون بذلك آية، فلم يفعل^(٣).

ثم إنهم -قاتلهم الله- قد نسبوا الألوهية إليه استهزاء به ليكون ذلك أبلغ في تسلطهم عليه، حيث يذكر ابن القيم السبب الذي حملهم على ذلك وهو أن أحبارهم وعلماءهم لما مضى وبقي ذكره، خافوا أن يصير عامتهم إليه، إذ كان على سنن تقبله قلوب الذين لا غرض لهم، فشنعوا عليه أموراً كثيرة ونسبوا إليه دعوى الإلهية تزهداً للناس في أمره^(٤).

طعن اليهود في نسب عيسى عليه السلام واختلافهم في ذلك :

وتظهر براءة ابن القيم رحمة الله حين يدل من مصادرهم على التناقض والاختلاف الواضح بين طوائفهم في قضية مشهورة وهي نسبة عليه السلام مما يدل على عدم يقينهم بشيء من أخباره.

ويورد ابن القيم: «أن منهم من يقول إنه كان رجلاً منهم ويعرفون أباه وأمه

(١) ابن القيم (هدية الحيارى) (ص ٥٢٩)

(٢) مرقس (١٥ ٣٠ ٣٢)

(٣) ابن القيم (هدية الحيارى) (ص ٥٣٠)

(٤) ابن القيم (هدية الحيارى) (ص ٥٣١).

وينسبونه لزنية^(١) وحاشاه وحاشا أمه الصديقة الطاهرة البتول، ويزعمون أن زوجها يوسف بن يهودا^(٢) وجد البنديرا^(٣) عندها على فراشها أو شعر بذلك فهجرها وأنكر ابنها^(٤).

ومن اختلاف اليهود -قاتلهم الله- في أمره ما ذكره لنا ابن القيم من أنهم يسمون أباه -بزعمهم- الذي هو خطيب مريم يوسف بن يهودا النجار، وبعضهم يقول إنما هو يوسف الحداد (وهذا من باب الاستهزاء) والنصارى تزعم أنها ذات بعل، وأن زوجها يوسف بن يعقوب ..

وينقل ابن القيم أنهم يختلفون في آبائه وعددهم إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام فمن مقل ومن مكثر^(٥) فهذا ما عند اليهود قاتلهم الله^(٦).

هكذا زعم اليهود وهكذا كفروا به وطعنوا في شرف والدته سيدة نساء العالمين، قال الله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦]، ﴿وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ لَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَائِلِينَ﴾ [التحریم: ١٢].

(١) إنجيل يوحنا (٨/ ٤٠-٤١)

(٢) يوسف بن يهودا ذكر في إنجيل متى بأن يوسف بن يهودا هو روح مريم العذراء وهو من بيت دود من بيت لحم. (متى: ١٦/ ١، ٢٠/ ١) وأنه مارس مهنة التجارة: (متى (١٣/ ٥٥).

(٣) البنديرا: قيل أنه اسم زوج مريم -على حد زعمهم- وذلك بقصد إخفاء اسمه الحقيقي، لطمطوي. محمد عزت، (الميزان في مقارنة الأديان) (ص ٦٧).

(٤) ابن القيم (هداية الخيارى) (ص ٥٣١)

(٥) المقل هو (متى) بيع عدد سلسلة لأباء عمه من يوسف أبي المسيح (كما يدعي) إلى إبراهيم عليه السلام أربعين رجلاً، والمكثر هو (نوقا) حيث بلغ عددهم عنده خمسة وخمسين رجلاً وقد أكرم السلسلة إلى آدم عليه السلام ابن القيم (هداية الخيارى) (ص ٥٣٢) من كلام المحقق محمد الحج في هامش الصفحة

(٦) ابن القيم (هداية الخيارى) (ص ٥٣٢)

المطلب الثالث

رد ابن القيم على إنكار اليهود لنبوة محمد ﷺ

لقد كان ابن القيم أحد العلماء الذين اهتموا بقضية النبوة وما يتعلق بها، بل لقد كان له دور بارز في إثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ وكانت له أيضاً حجة قوية في الرد على من أنكر نبوته ﷺ مثبتاً رحمه الله أن من أنكر نبوة محمد ﷺ وغيره من الأنبياء فقد أنكر نبوة من سبقه من الأنبياء والمرسلين، ثم إنه رحمه الله قد سلك طريقين أساسيين في إثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ وغيره من الأنبياء السابقين وهما العقل والنقل ومن خلاهما استطاع أيضاً أن يرد على منكري نبوة محمد ﷺ من اليهود والنصارى.

ومن خلال منهج النقل استطاع ابن القيم أن يجمع النصوص الدالة على البشارة بنينا محمد ﷺ، محلاً لتلك النصوص ناقداً لتأويلاتهم فيها ومثبتاً أنها دالة على نبوته ﷺ وهنا أستطيع أن أقول أن ابن القيم رحمه الله قد استطاع بعقليته الفذة أن يثبت أن كتب العهدين تتضمن نصوصاً تدل في مضمونها على البشارة بمحمد ﷺ على الرغم من جحود أهل الكتاب لها وعلى الرغم أيضاً من التحريف والتأويل الياطل لتلك البشارات.

ومن هذه البشارات التي استطاع ابن القيم أن يرد بها على منكري نبوة محمد ﷺ من اليهود والنصارى وأن يثبت بها نبوته ﷺ عن طريق منهجه التحليلي ما يلي:

البشارة الأولى: نبياً من بين إخوتهم مثلك

ما ورد في سفر التثنية (١٨/١٨-٢٠) «سأقيم لهم نبياً من بين إخوتهم مثلك وألقي كلامي في فمه، فينقل إليهم جميع ما أكلمه به، وكل من لا يسمع كلامي الذي يتكلم به باسمي أحاسبه عليه».

(١) ذكره ابن القيم في (هداية الحيارى) (ص ٣١٦) تحقيق د. محمد الحاج

قل بن القيم «فهذا النص مما لا يمكن لأحد منهم جحده وإنكاره ولكن لأهل الكتاب فيه أربع طرق. أحدها حمله على المسيح، أما اليهود فلهم فيه ثلاث طرق أحدها على حذف أداة الاستفهام والتقدير. أقيم لبني إسرائيل نبياً. إلخ. فهو استفهام إنكاري حذفت منه أداة الاستفهام. الثاني أنه خبر ووعيد ولكن المرد به شموئيل النبي فإنه من بني إسرائيل. والبشارة إنما وقعت بنبي من إخوتهم وإخوة القوم هم بنو أبيهم وهم بنو إسرائيل. الثالث: أنه نبي يبعثه الله في آخر الزمان يقيم به ملك اليهود ويعلو به شأنهم وهم ينتظرونه إلى الآن»^(١). وهو المسيح المنتظر. ويسمى عندهم ابن داود أي أنه سيأتي من نسل داود عليه السلام»^(٢).

وقد رد المسلمون تأويلهم الفاسد فقالتوا البشارة صريحة في النبي محمد ﷺ ولا تحتص على غيره لأنها إنما وقعت بنبي من إخوة بني إسرائيل لا من بني إسرائيل أنفسهم والمسيح من بني إسرائيل فلو كان المسيح هو المراد لقل أقيم هم نبياً من أنفسهم كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران ١٦٤]. وإخوة بني إسرائيل هم بنو إسماعيل ولا يقال في لغة أمة من الأمم أن بني إسرائيل هم إخوة بني إسرائيل كما أن إخوة زيد لا يدخل فيه زيد نفسه.

وإذا تتبعنا منهج ابن القيم بعد أن جمع النصوص ثم حللها فإنه يقوم بمناقشتها ومقارنتها وتفنيدها حيث يذكر أن النص يبطل حمله على شموئيل لأن قوله في النص «نبينا مثلك» يدل على أنه صاحب شريعة عامة مثل موسى عليه السلام، كما أن النص يبطل حمله على يوشع مع ثلاثة أوجه، الوجه الأول كون يوشع من بني إسرائيل لا من إخوتهم، والثاني أنه لم يكن مثل موسى في التوراة بدليل «لا يقوم في بني إسرائيل مثل موسى»، والثالث أن يوشع نبي في زمن موسى وهذا الوعد إنما هو

(١) من نقيم (هداية الخيارى) (ص ٣١٦، ص ٣١٧). تحقيق د. محمد الحاج

(٢) لسقا، أحمد حجازي (المسيا المنتظر) (ص ١٠٩)

بني يقيمه الله تعالى بعد موسى، وبهذه الوجوه الثلاثة يبطل حمله على هارون مع أن هارون توفي قبل موسى وتبأه الله مع موسى في حياته، ويبطل ذلك من وجه رابع وهو أن في هذه البشارة أنه ينزل عليه كتاباً يتكلم به للناس من فمه وهذا لم يكن لأحد بعد موسى غير النبي ﷺ^(١) وهذا الاستنتاج الذي توصل إليه ابن القيم يعتبر بمثابة الرد على خصومه مستنداً على استنتاجه بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ * وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ * أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٧] فالقرآن نزل على قلب رسول الله ﷺ وظهر للأمة من فمه، ولا تصح هذه البشارة على المسيح باتفاق النصارى لأنها إنما جاءت بواحد من إخوة بني إسرائيل وإخوتهم كلهم عبيد الله ليس فيهم إله والمسيح عندهم إله معبود وهو أجل عندهم من أن يكون نبياً لا غاية له فوقها وهذا ليس هو المسيح عند النصارى، وأما مقالته أنه على حذف الألف بأنه استفهام إنكاري والمعنى: «أقيم لبني إسرائيل نبياً مثلك» فهي عادة لهم معروفة في تحريف كلام الله عن مواضعه والكذب على الله وقولهم لما يبدلونه ويحرفونه: هذا من عند الله فحمل الكلام على الاستفهام غاية ما يكون من التحريف والتبديل، وهذا التحريف والتبديل من معجزات رسول الله ﷺ التي أخبر بها عن الله فأظهر الله صدقه في ذلك كله إلى كل ذي لب وعقل فازداد إيماناً وازداد الكافرون رجساً إلى رجسهم^(٢).

وهكذا يستخدم ابن القيم منهجه في بقية النصوص التي جمعها محلاً ومفنداً ومبطلاً وراداً ومصححاً.

(١) ابن القيم (هداية الخيارى) (ص ٣١٨)، تحقيق د. محمد الحاح.

(٢) ابن القيم (هداية الخيارى) (ص ٣١٨ ص ٣١٩) تحقيق د. محمد الحاح بتصريف.

البشارة الثانية: الاستعلان من جبال فاران

ما نقله ابن القيم من سفر التثنية (٣٣ ٢-٣) «أقبل الرب من سيناء وأشرق لهم من جبل سعير، وتجلّى من جبل فاران، وأتى من ربي القدس وعن يمينه نار مشتعلة»^(١)

ويفسر ابن القيم هذا النص مبيناً أن مجيئه من سيناء وهو الجبل الذي كلم الله موسى عليه السلام ونبأه عليه إخبار عن نبوة موسى عليه السلام^(٢) وتجليه من جبل سعير^(٣) هو مظهر عيسى المسيح من بيت المقدس وهذه بشارة بنبوة المسيح عليه السلام^(٤). وفاران - كما يقول ابن القيم - هي مكة حيث يبين أن استعلانه - أي ظهوره ومجيئه - من جبال فاران يعني إنزاله القرآن على محمد ﷺ^(٥).

ويوضح ابن القيم أن الله سبحانه وتعالى قد شبه نبوة موسى عليه السلام بمجيء الصبح وقلقه، ونبوة المسيح بعدها بإشراقه وضياؤه، ونبوة خاتم النبيين بعدهما ﷺ باستعلان الشمس وظهور ضوئها في الآفاق فنبوته ﷺ قد كمل الضياء واستعلن وطبق الأرض^(٦).

وينقل ابن القيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ما ذكره ابن تيمية في

(١) ذكره ابن القيم في (إعانة اللهفان) (٣٢٨/٢) تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، و(هداية الخباري) (ص ٣١٩)، تحقيق د. محمد الحاج. إلا أن النص الذي نقله ابن القيم في هذين الكتابين وكذلك كثيراً من النصوص التي ينقلها، اعتمد في ذلك على ترجمة أخرى.

(٢) ابن القيم (هداية الخباري) (ص ٣١٩)

(٣) سعير. وهي قرية تقع شمال مدينة الخليل بالقرب من بلدة حلمول، هكذا قال د. محمد الحاج في تحقيقه على (هداية الخباري) (ص ٣١٩)، وهي منطقة تقع جنوب البحر الميت كما ذكر في قاموس الكتاب المقدس (ص ٤٦٦-٤٦٧).

(٤) ابن القيم (هداية الخباري) (ص ٣١٩)

(٥) ابن القيم (هداية الخباري) (ص ٣١٩+٣٤٥).

(٦) نفس الكتاب، (ص ٣١٩-٣٢٠)

الجواب الصحيح^(١) من أن الله سبحانه قد ذكر هذا في التوراة على الترتيب الزمني فذكر إنزال التوراة ثم الإنجيل ثم القرآن فكان مجيء التوراة مثل طلوع الفجر، ونزول الإنجيل مثل إشراق الشمس ونزول القرآن بمنزلة ظهور الشمس في كبد السماء.

ومن الملاحظ أن ترتيب التوراة كان حسب زمان بعثة الأنبياء الثلاثة كما بين ذلك ابن تيمية رحمه الله، أما ترتيب القرآن الكريم لزمان بعثة هؤلاء الأنبياء الثلاثة فكان مختلفاً عن ترتيب التوراة حيث تدرج من العالي إلى الأعلى، فهو ترتيب أفضلية.

يقول ابن القيم نقلاً عن شيخه ابن تيمية: «وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الأماكن الثلاثة في قوله تعالى: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ [التين: ١] وهو في الأرض المقدسة التي بعث منها المسيح وأنزل فيها الإنجيل ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: ٢]، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه الصلاة والسلام تكليماً، وأقسم بالبلد الأمين^(٢) وهو مكة التي أسكن إبراهيم ولده إسماعيل وأمه فيه وهو فاران، ولما كان ما في التوراة خبراً عن ذلك، أخبر به على الترتيب الزمني فقدم الأسبق ثم الذي يليه، وأما القرآن فإنه أقسم به تعظيماً لشأنها، وإظهاراً لقدرته وآياته وكتبه ورسله، فأقسم بها على وجه التدرج درجة بعد درجة، فبدأ بالعالي، ثم انتقل إلى أعلى منه، ثم إلى أعلى منه، فإن أشرف الكتب المنزلة القرآن ثم التوراة ثم الإنجيل وكذلك الأنبياء الثلاثة»^(٣).

ويذكر ابن القيم^(٤) أن اليهود لا يعترفون بفاران على أنها مكة أرض الحجاز

(١) ابن تيمية (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) (٣/ ص ٣٠٢-٣٠٤) ونقله ابن القيم في (هدية الخياري) (ص ٣٤٦) تحقيق د. محمد الحاح.

(٢) كما هو في قوله تعالى: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ٣]

(٣) ابن القيم (هدية الخياري) (ص ٣٤٧) بتصرف، تحقيق د. محمد الحاح وقد نقله ابن القيم بتصرف عن ابن تيمية في (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) (٣/ ص ٣٠١-٣٠٤)، علماً بأنه لم يشر إلى الكتاب وإنما اكتفى بذكر صاحبه بقوله قال شيخ الإسلام، وهكذا كلما نقل عن ابن تيمية

(٤) ابن القيم (إغاثة اللهفان) (٢/ ص ٣٢٨-٣٢٩) تحقيق طه سعد، و(هداية الخياري) ص ٣٢٠

ويقولون إنها أرض الشام، وهذا من بهتهم وتحريفهم ففي التوراة أن إسماعيل^(١) لما فارق أباه سكن في بركة فاران - وهي جبال مكة - ولفظ التوراة كمايلي:

«وأقام إسماعيل في بركة فاران وأنكحته أمه امرأة من أرض مصر»^(٢) فثبت لهم بنص التوراة أن جبال فاران مسكن لولد إسماعيل وإذا كانت التوراة قد أشارت إلى نبوة تنزل على جبال فاران لزم أنها تنزل على ولد إسماعيل لأنهم سكانها، ويتابع ابن القيم ويؤكد قائلاً: «ومعلوم بالضرورة أنها لم تنزل على غير محمد ﷺ من ولد

(١) إسماعيل: وهو النبي إسماعيل عليه السلام، ابن النبي إبراهيم عليه السلام، ابن تارح (آزر) من نسل سام بن نوح وهو الابن الأكبر لأبيه، وأمه هاجر المصرية حيث أخذه هو وأمه أبوه إبراهيم عليه السلام وأسكنهما في فاران (مكة) وقد امتحه الله بديع إسماعيل، فاستجابا دون تردد ولكن الله فداء بكبش عظيم، وقد أمرهما الله ببناء الكعبة فقاما يرفعان قواعدهما حتى اتما بناءها، وقد تزوج إسماعيل امرأة من جرهم وهي بنت مضاض بن عمر الجرهمي. وجرهم هو ابن قحطان، وقحطان أبو اليمن كلها وإليه يجتمع نسبها وينتهي نسبه إلى سام بن نوح عليه السلام، وقد ولدت مضاض هذه - زوجة إسماعيل عليه السلام - ثني عشر ذكراً وهم أبناء إسماعيل عليه السلام وهم أيضاً آباء القبائل العربية كلها ويعتبر قيدر - وهو أكبر أبناء إسماعيل - جد عدنان ولذلك يعتبر إسماعيل عليه السلام رأس السلالة العربية المعروفة بالمستعربة.

فقط اصطحب النسابون على جعل العرب ثلاثة أقسام:

القسم الأول: العرب البائدة: كعاد وثمود وجرهم الأولى

القسم الثاني: العرب العاربة: وهم عرب اليمن من ولد قحطان فهم القحطانيون

القسم الثالث: العرب المستعربة: وهم نسل إسماعيل بن إبراهيم وسكنوا في شمال الجزيرة.

فالعرب كلها من ولد إسماعيل وقحطان، وبعضهم يقول بأن قحطان من ولد إسماعيل فيكون إسماعيل جد العرب كلها، وقد توفي إسماعيل عليه السلام بمكة وعمره ١٣٠ سنة ودفن في الحجر مع أمه هاجر رحمهم الله تعالى، والحجر هو حجر الكعبة الذي تركته فريش في بنائها من أساس إبراهيم عليه السلام حينما صاقت بهم النفقة فحجرت على الموضع ليعرف أنه من الكعبة، وقد ورد اسم إسماعيل في القرآن الكريم ١٢ مرة، (ابن هشام، عبد الملك بن هشام) (السيرة النبوية) (١/٧-٩) تعليق طه سعد، والبركلي، خير الدين (الاعلام) (١/٣٠٦) و(قاموس الكتاب المقدس) (ص ٧٣)، والهندي، رحمه الله (إظهار الحق) (٤/هامش (ص ١١١٨) من كلام المحقق د. محمد ملكاوي.

(٢) التوراة: التكوين (٢١/٢٠-٢١).

إسماعيل عليهما السلام^(١)، ونراه في موضع آخر من هداية الخباري يقول نقلاً عن علماء الإسلام: «وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هي مكة فإن ادعوا أنها غير مكة قلنا: أليس في التوراة أن إبراهيم أسكن هاجر وإسماعيل فاران وقلنا لهم: دلونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران والنبي الذي أنزل عليه كتاباً بعد المسيح».

البشارة الثالثة: بشارة الفارقليط

وهي بشارة تدل دلالة صريحة على محمد ﷺ وقد استطاع ابن القيم - رحمه الله - بمنهجه التحليلي أن يكشف اللثام عن دلالة تلك النصوص التي تبشر به ﷺ، كما أنه استطاع بمنهجه العقلي أن يفهم الخصم ويلزمه الحجة، ولقد تناول ابن القيم هذه البشارة بذكر نصوصها الدالة عليها أولاً ثم عاد إليها محلاً ومفنداً وناقداً ومسترشداً بما في كتاب الله تعالى.

وفيما يلي نصوص هذه البشارة كما اختارها ابن القيم رحمه الله:

• ما جاء في الإنجيل أن المسيح قال للحواريين: «أنا ذاهب وسيأتيكم البارقليط روح

(١) ابن القيم (إعانة للهمان) (٢/ ص ٣٢٨-٣٢٩) تحقيق طه سعد و(هداية الخباري) (ص ٣٢٠) تحقيق د محمد الحجاج

(٢) من الملاحظ هنا أن ابن القيم رحمه الله كان ينقل عن (الحوار الصحيح) (٣ ص ٣٠٠) بدور الإشارة إلى اسم الكتاب وإنما كان يكتبي ما نقول قال شيخ الإسلام - يعني (ابن تيمية) مع لعنم أن ابن تيمية رحمه الله كان قد نقل ما أشرنا إليه عن كتاب (دلائل النبوة) لأبي محمد بن قتيبة، ومن لقيم هـ قد اكتبى بما نقله شيخه ابن تيمية.

(٣) أورد ابن القيم هذه النصوص في كتابه (هداية الخباري) (ص ٣٢٣-٣٢٥) تحقيق د. محمد الحجاج. وقد قمت بالتأكد من هذه النصوص حسب الترجمة الحالية للكتابات المقدسة فوجدت بعض الاختلاف في الألفاظ، وقد وجدت أنهم لا يذكرون كلمة (فارقليط) وقد عمدوا إلى حذفها واستبدالها، بالمعزي) وفي ترجمات أخرى (بالمختص) وذلك لوضوح معنى الحمد في الفارقليط

الحق لا يتكلم من قبل نفسه، إنما هو كما يقال له، وهو يشهد لي وأنتم تشهدون، لأنكم معي قبل الناس وكل شيء أعده الله لكم يخبركم به»^(١)

• وفي إنجيل يوحنا «البارقليط لا يجيئكم ما لم أذهب، وإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة ولا يقول من تلقاء نفسه، ولكنه عما يسمع به يكلمكم ويسوسكم بالحق ويخبركم بالحوادث والغيوب»^(٢).

• وفي موضع آخر «إن البارقليط روح الحق الذي يرسله أبي باسمي هو يعلمكم كل شيء»^(٣)

• ونص آخر: «إني سائل أبي أن يبعث إليكم بارقليطاً آخر يكون معكم إلى الأبد، وهو يعلمكم كل شيء»^(٤)

• وبشارة أخرى: «ابن البشر ذاهب والبارقليط من بعده يجيء لكم بالأسرار، ويفسر لكم كل شيء وهو يشهد لي كما شهدت له، فإني أجيئكم بالأمثال وهو يأتيكم بالتأويل»^(٥).

• وفي موضع آخر: «إن أركون العالم سيأتي وليس لي شيء»^(٦).

ومن لملاحظ أن هذه النصوص متقاربة، وابن القيم يعلل هذا بما نقله عن (دلائل النبوة) حين قال: قال أبو محمد بن قتيبة^(٧): «وهذه الأشياء على اختلافها متقاربة

(١) إنجيل يوحنا (٢٦/١٥-٢٧).

(٢) إنجيل يوحنا (١٦/٧-١٣).

(٣) إنجيل يوحنا (١٤/٢٦).

(٤) إنجيل يوحنا (١٤/١٥-١٧).

(٥) إنجيل يوحنا (١٥/٢٦).

(٦) إنجيل يوحنا (١٤/٣٠) وقد استبدلت كلمة أركون في الترجمة التي بين يدي بكلمة سيد

(٧) أبو محمد بن قتيبة، هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة (٢٧٦هـ) وله كتاب (دلائل النبوة)

وذكره ابن النديم في المهرست (ص ٨٦) وهو مخطوط في مكتبة الظاهرية بدمشق بعنوان: «إعلام رسول

وإنما اختلفت لأن من نقلها عن المسيح ﷺ في الإنجيل من الحواريين بعده»^١

- وفي موضع آخر: «ولست أدعكم أيتاماً لأنى سأتيكم عن قريب»^٢
- ومن لنصوص أيضاً: «إن لي كلاماً كثيراً أريد أن أقوله لكم، ولكنكم لا تستطيعون حمله، لكن إذا جاء روح الحق، ذاك يرشدكم إلى جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بما يسمع، ويخبركم بكل ما يأتى ويعرفكم جميع ما للأب»^(٣).
- وفي موضع آخر قوله في الإنجيل الذي بأيدي النصارى عن يوحنا أن المسيح قال للحواريين «من أبغضني فقد أبغض الرب ولولا أنى صنعت لهم صنائع لم يصنعها أحد لم يكن لهم ذنب لكنهم الآن رأوا فلا بد أن تتم الكلمة التى في الناموس لأنهم أبغضوني مجاناً ولو قد جاء المنعمنا»^(٤) هذا الذي يرسله الله إليكم من عند الرب روح القدس فهو شهيد على وأنتم أيضاً لأنكم قدماً كنتم معي، هذا قولي لكم لكي لا تشكوا إذا جاء»^(٥).

تعريف لفظ الفارقليط:

يتضمن لفظ الفارقليط معنى الحمد والحمد والحمد وأحمد ونحوها وهو يشبه لفظ

الله المنزلة على رسله في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن وغير ذلك ودلائل نبوته من البراهين النيرة والدلائل الواضحة (د. محمد الحاج، في تحقيقه على كتاب ابن القيم (هداية الخيارى) هامش (ص ٣٢٤).

(١) ابن القيم (هداية الخيارى) (ص ٣٢٤) تحقيق د. محمد الحاج

(٢) إنجيل يوحنا (١٨/١٤)

(٣) إنجيل يوحنا (١٦/١٢-١٥).

(٤) المحمدا كلمة سرىانية وتعني بالعربية الحمد والمحمود والحمد، والترجمات الحالية لا تذكر لفظ المحمدا بعضها يذكر الفارقليط وبعضها يذكر المعزى، ابن القيم (هداية الخيارى) (ص ٣٧٩)

(٥) إنجيل يوحنا (١٥، ٢٣، ٢٧) وقد أورده ابن القيم في (هداية الخيارى) (ص ٣٧٩) تحقيق د. محمد الحاج

(المنحمن) بالسريانية، قال ابن القيم: «وتفسيره بالرومية: الفارقليط وهو بالعربية الحامد والمحمود والحمد»^(١)

وقال أيضاً: «والفارقليط بلغتهم لفظ من ألفاظ الحمد، إما أحمد أو محمد أو محمود أو حامد .. ونحو ذلك»^(٢).

ثم بين ابن القيم معنى الفارقليط في لغتهم وذكر أقوالهم التي أرجعها إلى ثلاثة أوجه: أحدها: أنه الحامد والحمد ورجحت طائفة هذا القول وقالوا: الذي يقوم عليه البرهان في لغتهم الحمد والدليل عليه في قول يوشع: «من عمل حسنة يكون له فارقليط جيد» قال ابن القيم: «أي حمد جيد»^(٣).

والقول الثاني. وعليه أكثر النصارى - أنه المخلص.

والقول الثالث: أنه بمعنى المعزي.

وعلى المعنى الأول فإن وصف الحمد ظاهر في محمد ﷺ ، وأمثه هم الحمادون الذين يحمدون الله على كل حال، وهو صاحب ألواء الحمد والحمد مفتاح خطبته ومفتاح صلاته، ولما كان حماداً سمي بمثل وصفه محمداً على وزن مكرم ومقدس ومعظم وهو الذي يحمد أكثر مما يحمد غيره، ويستحق ذلك فلما كان حماداً لله كان محمداً، وأما أحمد فهو أفعل التفضيل إذ هو أحمد من غيره، يقال: هذا أحمد من هذا، أي أحق بأن يحمد من هذا فيكون فيه تفضيل على غيره في كونه محموداً، فلفظ محمد يقتضي زيادة في الكمية ولفظ أحمد يقتضي زيادة في الكيفية^(٤).

(١) ابن القيم (هداية الخيارى) (ص ٣٧٩) تحقيق د. محمد الحاج.

(٢) ابن القيم (هداية الخيارى) (ص ٣٢٤) تحقيق د. محمد الحاج.

(٣) نفس المرجع (ص ٣٢٥).

(٤) نفس المرجع (ص ٣٣٤-٣٣٥) وهو من مقولات ابن القيم عن (الجواب لصحيح) (١٦، ٤) لابن

تيمية.

ويبين ابن القيم أن هناك من الناس من يقول معناه أنه أكثر حمداً لله من غيره وعلى هذا فيكون بمعنى الحامد والحمداد وعلى الأول بمعنى المحمود

والمصدر (الحمد) فإذا كان الفارقليط بمعنى الحمد فهو تسمية بالمصدر ويفيد المبالغة في كثرة الحمد، وهنا ينقل ابن القيم سر ما أخبر به القرآن عن المسيح من قوله: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصافات: ٦٦] فإن هذا هو معنى الفارقليط^(١).

ذكر الأستاذ عبدالوهاب النجار في كتابه^(٢) أنه كان في سنة (١٨٩٤م) طالباً في دار العلوم وكان يجلس بجانبه في درس اللغة العربية الدكتور كارلونيلىنو الإيطالي المتخصص في آداب اللغة اليونانية، فسأله النجار عن معنى كلمة (باراكليتوس Parakletos) فأجاب بأنها المعزي.

فقال له النجار: أنا أسأل الدكتور كارلونيلىنو الحاصل على الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية القديمة ولست أسأل قسيساً.

فقال له كارلونيلىنو: معناه الذي له حمد كثير.

فقال له النجار: هل يوافق ذلك أفعال التفضيل من فعل حمد.

فقال كارلو: نعم.

فقال له النجار: إن رسول الله ﷺ من أسمائه أحمد.

فقال له كارلونيلىنو: يا أخي أنت تحفظ كثيراً.

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله سر ما أخبر به القرآن الكريم عن المسيح في قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصافات: ٦٦] وقد أشار رحمه الله

(١) ابن القيم (هداية الخيارى) (ص ٣٣٥) تحقيق د. محمد الحاج

(٢) النجار، عبدالوهاب، (قصص الأنبياء) (ص ٤٧٣).

إلى ما في سفر التكوين (١٧ / ٢٠): «وأما في إسماعيل فقد قبلت دعاءك قد باركت فيه وأثمرت وأكثره بمؤد مؤد».

ثم ذكر أن أهل الكتاب قد اختلفوا في تفسير لفظه (مؤد مؤد) على قولين.

الأول: تأتي بمعنى جداً جداً أي كثيراً كثيراً.

الثاني: أنها صريحة في اسم محمد ﷺ

فعلى القول الأول تكون بشارة بمن يعظم من بني إسماعيل عليه السلام وهنا يؤكد ابن القيم بأنه لم يعظم منهم أحد كما عظم محمد ﷺ.

أما على القول الثاني فإن الذي يؤيده قرب الفاظ اللغة العربية من العبرانية وذلك كما في إسماعيل: شماعيل، وسمعتك: شمعتخا، وقدسك: قدشتخا، وأنت: آتا، وإسرائيل: يسرائيل، وهكذا فتكون الكلمة العبرانية (مؤد مؤد) أقرب شيء إلى لفظة محمد، ولا يقال (بجداً جداً) بخلاف أعظمه بمحمد ﷺ أو أعظمه جداً جداً فآله سبحانه قد كثره بمحمد ﷺ.

وعلى هذين التقديرين يؤكد ابن القيم أن النص من أظهر البشارات به ﷺ، فإنه بالمطابقة بين معنى الفارقليط ومعنى مؤد مؤد ومعنى محمد وأحمد وبالنظر إلى خصال الحمد التي فيه وفي أمته ودينه وكتابه ويعرف ما خلص به العالم من أنواع الشرك والكفر، والقول على الله بغير علم وما أعز الله به الحق وأهله وقمع به الباطل وحزبه يتيقن أنه الفارقليط الموعود به في هذه البشارة^(١)

وقد حَرَفَ النصارى نصوص هذه البشارة عندما عجزوا فمنهم من قال هو روح نزلت على الخواريين، ومنهم من يزعم أنه -أي الفارقليط- هو المسيح نفسه لكونه جاء بعد الصليب بأربعين يوماً وكونه قام من قبره، ومنهم من قال لا نعرف ما المراد

(١) ابن القيم (هداية الخيارى) (ص ٣٣٥-٣٣٨) تحقيق د. محمد الحاج.

بهذا الفارقليط، إلا أن ابن القيم رحمه الله قد رد على إنكارهم وتحريفهم رداً شافياً، وقام بتحليل نصوصهم التي حملوها على غير محلها تحليلاً دقيقاً ثم قام بمطابقة تلك النصوص بعد أن كشف اللثام عنها بما يؤيدها من آيات القرآن الكريم

البشارة الرابعة : البركة في ولد إسماعيل :

قال في التوراة في السفر الأول (التكوين ١٦ - ٧ - ١٢) : «إن الملك ظهر لهاجر أم إسماعيل فقال يا هاجر!! من أين أقبلت؟ وإلى أين تريدان؟ فلما شرحت له الحال قال: ارجعي فلاني ساكثر ذريتك وزرعك حتى لا يحصون كثرة وها أنت تحبلين وتلدن ابناً تسميه إسماعيل لأن الله قد سمع نذلك وخضوعك وولدتك يكون وحشي الناس^(١). وتكون يده على الكل ويد الكل مبسوطة إليه بالخضوع^(٢)»

وقد بين ابن القيم رحمه الله أن هذه بشارة بمحمد ﷺ قائلاً: «فمن هذا الذي ينطبق عليه هذا الوصف سوى محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه؟ ويبين أيضاً أنه قد ورد في سفر التكوين (١٢ / ٢١ - ١٣) : «إن الله قال لإبراهيم إني جاعل ابنك إسماعيل لأمة عظيمة إذ هو من زرعك» وليس هو سوى محمد بن عبدالله ﷺ، الذي هو من صميم ولده فإنه جعل لأمة عظيمة، ولم يأت من صلب إسماعيل من بورك وعظم وانطبقت عليه هذه العلامات غير رسول الله ﷺ وأمتة، ملأوا الأنفاق وأربوا في الكثرة على نسل إسحاق^(٣).

ويؤكد ابن القيم أن يد بني إسماعيل قبل مبعث محمد ﷺ لم تكن فوق أيدي بني إسحاق بل كان في أيدي بني إسحاق النبوة والكتاب، فقد دخلوا مصر زمن يوسف

(١) يكون وحشي الناس كناية عن قتله أعدائه، أو عن السكن في البراري

(٢) ذكره ابن القيم في (هدية الخيارى) (ص ٣٢١)، وقد نقل ابن القيم هذه البشارة عن (جواب الصحيح)

(٣ / ٣١٣ - ٣١٤) وهذا من منهج ابن القيم وهو الاعتماد على الجواب الصحيح لابن تيمية

(٣) ابن القيم (هدية الخيارى) (ص ٣٢١، ص ٣٢٢).

مع يعقوب، ثم خرجوا منها لما بعث موسى وكذلك كانوا مع يوشع إلى زمن داود وملك سليمان الذي لم يؤت أحد مثله فلم تكن يد بني إسماعيل عليهم، ثم سلط الله عليهم نبوخذ نصر ولما بعث فيهم المسيح كفروا به فدمر الله عليهم وزال ملكهم وقطعهم في الأرض أمماً وكانوا تحت حكم الروم، ولم تكن يد إسماعيل عليهم في هذه الحالة ولا كانت فوق الجميع إلى أن بعث الله محمداً برسالة ﷺ وأكرمه بنبوته فصارت بمبعثه يد بني إسماعيل فوق الجميع وبسلطانهم قهروا سلطان فارس والروم والترك واليهود والنصارى والمجوس وعباد الأصنام وهذا أمر مستمر إلى آخر الدهر^(١).

وهنا يبين ابن القيم أن اليهود لما لم يستطيعوا إنكار هذا النص حرفوه وأولوه على أنه بشارة بملكه وظهوره وقهره لا برسالة ونبوته.

وقد رد ابن القيم على إنكارهم هذا مبيناً أن الملك ملكان:

أحدهما: ملك جبار متسلط ليس معه نبوة.

والثاني: ملك نفسه نبوة.

وقد بين أن البشارة لم تقع بالأول لا سيما إذا ادعى صاحبه النبوة والرسالة، لأن البشارة لا تقع بملكه وإنما يقع التحذير من فتنته كما وقع التحذير من فتنة الدجال، وبين ابن القيم أيضاً أن هذا عند الجاحدين، بمنزلة أن يقال إنك ستلدين جباراً ظالماً طاغياً يقهر الناس بالباطل ويقتل أولياء الله ويبدل دين الأنبياء ويكذب على الله ونحو ذلك، فمن حمل البشارة على هذا فهو من أعظم الخلق بهتاناً وفرية على الله وليس هذا بمستنكر لأمة الغضب وقتلة الأنبياء والقوم البهت^(٢).

(١) نفس المرجع (ص ٣٥٠).

(٢) ابن القيم (هداية الخيارى) (ص ٣٥١) تحقيق د. محمد الحاج

البشارة الخامسة : راكب الجمل

قوله في نبوة أشعيا: « قيل لي: قم ناظراً فانظر ما ترى تحبر به قلت أرى راكبين مقبلين أحدهما على حمار والآخر على جمل يقول أحدهما لصاحبه سقطت بابل وأصنامها»^(١).

وقد فسر ابن القيم رحمه الله أن صاحب الحمار عندنا وعند النصارى هو المسيح وراكب الجمل هو محمد ﷺ وهو أشهر بركوب الجمل من المسيح بركوب الحمار، ثم بين أنه بمحمد ﷺ قد سقطت أصنام بابل لا المسيح، ولم يزل في إقليم بابل من يعبد الأوثان من عهد إبراهيم الخليل إلى أن سقطت بمحمد ﷺ.

البشارة السادسة : ولادة العاقر:

قول إشعيا في مكة: «سري واهتزي أيتها العاقر التي لم تلد وانطقي بالتسبيح، وافرحي، ولم تحبلي، فإن أهلك يكونون أكثر من أهلي»^(٢).

ويحلل ابن القيم هذا النص مبيناً ما يعنيه أشعيا من أهله هو أنهم من بيت المقدس، والعاقر هي مكة لأنها لم تلد قبل محمد ﷺ نبياً، ولا يجوز أن يريد بالعاقر بيت المقدس لأنه بيت الأنبياء ومعدن الوحي وقد ولد فيه أنبياء كثيرون^(٣).

البشارة السابعة : دعوة الناس للحج:

ففي موضع آخر قول إشعيا «إنه ستملاً البادية والمدن قصوراً إلى قبادار، ومن رؤوس الجبال ينادونهم الذين يجعلون لله الكرامة ويثنون تسبيحه في البر والبحر»^(٤).

(١) العهد القديم، أشعيا (٢١، ٦-٩) وذكره ابن القيم في (هداية الخيارى) (ص ٣٥٧) نفس، المحقق

(٢) العهد القديم، إشعيا (٥٤ / ١-٣)

(٣) ابن القيم (هداية الخيارى) (ص ٣٥٩) نفس، المحقق.

(٤) إشعيا (٤٢ / ١١)

وقال: «أرفع عدماً لجميع الأمم من بعيد فيصفر بهم من أقصى الأرض فإذا هم سراع يأتون»^(١)

وهنا يوضح ابن القيم أن بني قيدر هم العرب، لأن قيدر ابن إسماعيل بإجماع الناس، والعلم الذي يرفعه هو النبوة، والصغير بهم دعاؤهم من أقصى الأرض إلى الحج، فإذا هم سراع يأتون وهذا مطابق لقوله عز وجل: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج ٢٧].

كانت تلك بعض النصوص التي تدل على البشارة بمحمد ﷺ مع العلم أن ابن القيم رحمه الله أورد أكثر من ثلاثين بشارة ولكنني أكتفي بهذا القدر من النصوص الواضحة التي تؤكد معرفة اليهود بالنبي محمد ﷺ وتعد من البشارات والنصوص التي ساقها ابن القيم شاهداً على ثبوت نبوة نبينا في كتبهم وأن إنكار اليهود لنبوة محمد ﷺ هو عناد واستكبار.

وبجانب اعتماد ابن القيم على منهج النقل والتحليل والنقد في تكذيب اليهود وإنكارهم للنبوة فجده بجانب ذلك يستخدم أدلة عقلية ليبين كذبهم في دينهم وعلى نبينا محمد ﷺ فيثبت بهذا المنهج العقلي نبوة محمد ﷺ وغيره من الأنبياء كموسى وعيسى عليهما السلام.

وأنه لا يمكن لليهودي على وجه الأرض أن يصدق بنبوة موسى عليه السلام إلا بالتصديق والإقرار بنبوة محمد ﷺ وكذلك النصراني .. حيث استطاع ابن القيم بمنهجه العقلي أن يكشف تلاعب أهل الكتاب بالنصوص عندهم. ويكفي هذا شاهداً على قدرة ابن القيم العقلية في إلزام الخصم الحجة القوية إذا سلك طريق العقل والفكر في الحوار والجدال.

ونختتم حديثنا في هذا الموضوع ببعض البراهين التي ساقها ابن القيم في الدلالة

(١) إشعياء (٥٠/٢٦)

على صدق وصحة نبوة سيدنا محمد ﷺ والتي يظهر فيها برجاجة عقله وقوة حجته حين الاستدلال وسوق الحجج والبراهين وكذلك ما يشته بطريق التواتر على أنه دليل قاطع على صحة وصدق نبوته ﷺ ومن ذلك قوله:

(«إن الآيات والبراهين التي دلت على صحة نبوته وصدقها أضعاف أضعاف آيات من قبله من الرسل فليس لني من الأنبياء آية توجب الإيمان به إلا ولمحمد ﷺ آيات مثلها أو ما هو في الدلالة مثلها وإن لم يكن من جنسها فأيات نبوته أعظم وأكبر وأبهر وأدل والعلم بنقلها قطعي لقرب العهد وكثرة النقلة واختلاف أمصارهم وأعصارهم واستحالة تواطئهم على الكذب .. فإن جاز القدح في ذلك كله ففي وجود موسى وعيسى وآيات نبوتهما أجوز وأجوز وإن امتنع القدح فيهما وفي آيات نبوتهما فامتناعه في محمد ﷺ وآيات نبوته أشد»^(١).

ومن الملاحظ هنا أن ابن القيم رحمه الله يدل على صدق نبوة محمد ﷺ عن طريق التواتر في نقل معجزاته ويعتبره دليل قطعي ومن ذلك التواتر الذي ذكره - رحمه الله - قرب عهدهم برسول الله ﷺ وكثرة النقلة، واستحالة تواطئهم على الكذب، واختلاف أمصارهم مبيناً أن العلم بآيات نبوته كالعلم بنفس وجوده بحيث لا يمكن المكابرة في ذلك.

(ومن الدلائل التي ذكرها ابن القيم أن الأنبياء المتقدمين بشروا بنبوته، وأمروا أممهم بالإيمان به، فمن جحد نبوته فقد كذب الأنبياء قبله فيما أخبروا به، وخالفهم فيما أوصوا به من الإيمان به، فالتصديق به لازم من لوازم التصديق بهم، وإذا انتفى اللازم انتفى ملزومه قطعاً، وبيان الملازمة ما تقدم من الوحوه الكثيرة التي تفيد بمجموعها القطع على أنه ﷺ قد ذكر في الكتب الإلهية على ألسن الأنبياء، وإذا ثبتت الملازمة فانتفاء اللازم موجب لانتفاء ملزومه^(٢).

(١) ابن القيم (هداية الخيارى) (ص ٥٧٨) تحقيق د محمد الحاج.

(٢) ابن القيم (هداية الخيارى) (ص ٥٧٧) تحقيق د محمد الحاج.

ومن الملاحظ هنا استخدام ابن القيم للقياس المنطقي، حيث ظهرت براعته رحمه الله في بيان التدليل على صدق نبوته وكأنه خاطب أصحاب المنطق ولعقل بنظرية علمية منطقية، بين فيها المقدمات، ثم أظهر النتيجة، وكأنه يقول:

- كل الأنبياء صدقوا وأقروا بنبوة محمد ﷺ.

- واليهود والنصارى صدقوا وأقروا بهؤلاء الأنبياء.

إذن فلا بد أن تكون النتيجة أن يصدق اليهود والنصارى ويقروا بنبوة محمد ﷺ.

(ما نقله ابن القيم رحمه الله عن كتاب الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكُفْرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحزاب ١١٠]

وهنا يستشهد ابن القيم على صحة نبوته بعلماء أهل الكتاب الذين أسلموا ودخلوا علناً في دينه وشهدوا أنه النبي الذي كانوا يتدارسون صفاته في كتبهم وينتظرون خروجه، كابن سلام والنجاشي وغيرهما كثير، وفي هذا رد بليغ يستخدمه ابن القيم حجة على الجاحدين منهم، المنكرين لصفاته في كتبهم، وهنا يقول ابن القيم: «وإذا شهد له واحد من هؤلاء، لم يوزن به ملء الأرض من الكفرة ولا تعارض شهادته بمحو ملء الأرض من الكفار كيف والشاهد له من علماء أهل الكتاب أضعاف أضعاف المكذبين له منهم؟»^(١)

(وما استدل به ابن القيم على صدق نبوته تأكيداً امتناع أن تخلو الكتب المتقدمة عن الأخبار بمثل هذا الأمر العظيم الذي لم يطرق العالم من حين خلق إلى قيام الساعة أمر أعظم منه فلا بد أن تطابق الرسل على الإخبار به، ويتساءل ابن القيم: «إذا كان الدجال -رجل كاذب يخرج في آخر الزمان ويقاؤه في الأرض أربعون يوماً وقيل ستة أشهر- قد تطابقت الرسل على الإخبار به، وأنذر به كل نبي قومه من نوح إلى خاتم

(١) ابن القيم (هداية الخيارى) (ص ٣١٣-٣١٤) نفس المحقق.

الأنبياء والرسل صلى الله عليهم وسلم أجمعين، فكيف تتطابق الكتب الإلهية من أولها الى آخرها على السكوت عن الإخبار بهذا النبأ العظيم، فهذا عما لا يسوغه عقل عاقل وتأباه حكمة أحكم الحاكمين، بل الأمر بضد ذلك^(١)

حيث يؤكد ابن القيم أن الله سبحانه وتعالى ما بعث نبياً إلا عليه الميثاق بالإيمان بمحمد ﷺ وتصديقه كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران ٨١].

المبحث الثالث

فرق اليهود وتحريفهم للتوراة

المطلب الأول

فرق اليهود كما يراها ابن القيم

أخبرنا النبي ﷺ أن كلاً من اليهود والنصارى والمسلمين قد افترقوا إلى عدة فرق ففي الحديث الذي رواه الترمذي في سننه بسنده المتصل عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «تفرقت اليهود على إحدى وسبعين أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفرق أمي على ثلاث وسبعين فرقة»^(٢). وفي جزء من الحديث الذي رواه أبو داود في سننه من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه

(١) ابن القيم (هداية الخيارى) (ص ٣١٥) نفس المحقق.

(٢) ترمذي، محمد بن عيسى (صحيح الترمذي بشرح الإمام ابن العربي المالكي) (٥، ٢٥)، كتاب الإيمان، ما جاء في افتراق هذه الأمة، حديث رقم (٢٦٤٠). والحديث صحيح، [المحلة].

أنه قام فقال: ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال: «ألا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنين وسبعين ملة وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين». إلخ الحديث^(١).

ولقد اهتم كثير من علماء المسلمين بدراسة هذا الجانب الذي أخبر عنه النبي ﷺ فكتبوا وتعرفوا على كثير من هذه الفرق، فكان ابن القيم رحمه الله قد ذكر لنا أن اليهود وإن كانوا مفترقين افتراقاً كثيراً إلا أنه يجمعهم فرقتان (القرآؤون والربانيون)^(٢).

ومن الملاحظ أن ابن القيم عندما تناول الحديث في هاتين الفرقتين قد سار وفق منهج المقارنة بحيث وضع أوجه الشبه والمخالفة بينهما إلا أنه عندما جمع لنا الفرق اليهودية في هاتين الفرقتين لم يحدد لنا تاريخ نشأتها بل إن حديثه عنهما كان مقطوعاً ومنتشراً بحيث إنه لم يتحدث عن إحداها بمجرد حديث له بداية ونهاية ملموسة ومعروفة، بل كان القفز من فرقة إلى أخرى واضحاً، ولعل السبب في ذلك أنه كان قد أخذ كلاماً كثيراً في هذا الجانب عن السموأل بن يحيى، فالباحث عندما يرجع إلى هذا الموضوع في كتاب (إفحام اليهود) للسموأل يجد وكأن ابن القيم قد نقله كاملاً إلى كتبه^(٣).

وهنا رأيت من الواجب أن أرتب حديث ابن القيم عن هاتين الفرقتين ترتيباً

(١) أبو داود، سيمان بن الأشعث السجستاني (سنن أبي داود) (١٩٨/٤) كتاب السنة باب شرح السنة حديث رقم (٤٩٥٧)

(٢) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص ٤٦٨) تحقيق د. محمد الحاج.

(٣) قارن بين ما كتبه ابن القيم في هذا الموضوع في كتابه (هداية الحيارى) (ص ٤٦٨) وبين ما كتبه السموأل بن يحيى في كتابه (إفحام اليهود) (ص ١٧١) من تحقيق د. محمد عبدالله الشرفاوي

أ- أن علماء الاختصاص في هذا الجانب قد تكلموا عن أكثر من هاتين الفرقتين مشيرين إلى ظروف نشأتها ومبينين لمبادئها وتعاليمها ونحو ذلك وأن بعض العلماء المحدثين قد تكلموا عن بعض الفرق الحديثة التي ظهرت في اليهودية، فالحديث لا يقتصر على ما ذكره ابن القيم رحمه الله وإن كان له الفضل في بيان الكثير من هذه الأمور المتعلقة باليهود وغيرهم، فساذكر بعض أهم هذه الفرق التي ظهرت في اليهودية.

ب- أن هذه الفرق اليهودية قد ارتبط ظهورها بعوامل رئيسية ينبغي أن يشار إليها قبل البدء في الحديث عن الفرق نفسها علماً بأن ابن القيم -رحمه الله- لم يتحدث كثيراً عن هذه العوامل، سوى ما ذكره في سبب ظهور فرقة القرائين.

ج- لم يكن الخلاف بين تلك الفرق خلافاً سطحياً وإنما كان في الجوهر والأساس والسبب في ذلك يعود لاختلاف نظراتهم نحو الكتب المقدسة وإلى كثرة هذه الكتب التي ظهرت في فترات متباعدة وبأيدي كثيرة ومختلفة.

عوامل نشأة الفرق اليهودية:

يرجع الدكتور عرفان عبد الحميد^(١) نشأة الفرق اليهودية إلى عاملين رئيسيين نوجزهما فيما يلي:

أ- خضوع بني إسرائيل للهيمنة والاحتلال والسيطرة الأجنبية والذي كان يرافقه عمليات تهجير قسري واضطهاد ومعاناة، وما تولده من ردود فعل دينية متنوعة ومتعارضة ومتفاوتة بين الدعوة إلى الثورة والتمرد كما فعل المكابيون^(٢) أو

(١) فتح، عرفان عبد الحميد (اليهودية عرض تاريخي) (ص ٩١-٩٢)

(٢) لمكابيون وهم قادة الثورة المكامة التي اشتهرت في التاريخ اليهودي، فبعد أن احتل قورش ملك

الاستسلام للأقدار والارتكاس من غيبوبة كاملة بدعوى أن ما أصابهم لم يكن إلا لأنهم ارتدوا عن التوراة فليس لهم إلا انتظار المخلص الموعود لإنقاذهم كما كان الحال مع الحاسديين^(١)، أو اتباع سياسة التوافق والتفاهم مع الأعداء طمعاً في الحصول على التسامح الديني الذي يهيئ لهم فرصة العودة إلى دراسة التوراة والتلمود باعتقاد أن مرتكز الوجود المعنوي لليهود هو التوراة فهو الكفيل بالحفاظ

لعرس^(٢) بلاد بابل سمح لليهود بالعودة إلى فلسطين سنة (٥٣٨ ق م)، حيث عادت طوائف من اليهود من بابل وأعادوا بناء الهيكل لكنهم ظلوا تحت الحكم الفارسي إلى أن زحف الإسكندر الأكبر المقدوني (اليوناني) واحتل بلاد الشام وعندما مات خلف أتباعه البطالة في مصر وفلسطين والسلوقيون في سوريا، وفي هذه الفترة بدأ اليهود أول تمردهم على اليونان، وقد استطاع السلوقيون انتزاع الحكم من البطالة وقد عاملوا يهود معاملة قاسية وحاولوا تغيير دين اليهود إلى وثنيهم اليونانية، وبالفعل فقد تحول عدد من اليهود إلى الوثنيات ليونانية ودخلت كثير من الطقوس والعبادات الوثنية إلى اليهود بالقوة، وأدت هذه لمعاملة لقاسية إلى انفجار ثورة المكابيين حوالي (١٦٦ ق م)، عندما قام الملك السلوقي (انصرحيوس) بتدمير هيكل ونشر عبادة الأوثان، وقد ثار الكاهن «ميناخ» على هذا الوضع ومعه أبناءه الخمسة والذي تولى أبه الأكبر بعد وفاته والمسمى «يهوذا المكابي» قيادة الثورة المكابية وهو لنقب الذي اشتهرت به هذه الأسرة واستطاع يهوذا أن يستولي على اورشليم سنة (١٦٥ ق م) في الخامس والعشرين من شهر (Keslve) الذي يقابل شهر كانون أول (ديسمبر) ولهذا فهم يحتفلون بهذا اليوم من كل عام ولمدة ثمانية أيام يشعلون فيها الشموع ويطلقون على هذا اليوم يوم عيد الإهداء (الخاوكة)، وقد قتل آخر ملك من ملوك المكابيين في عهد «ميرودوس» الروماني الذي تم تنصيبه ملكاً على فلسطين (لسر، محمد علي (المدخل لدراسة لثورة) (ص ١٠٥)، وشلي، أحمد (مقارنة الأديان - اليهودية) (ص ٩٤)، وظاظا، حس (الفكر لديني اليهودي) (ص ١٧١)، وفتاح، عرفان عبد الحميد (اليهودية عرض تاريخي) (ص ١٤٣)، ومصطفى، عبد العزيز (قل أن يهدم الأقصى) (ص ٦٩).

(١) الحاسديين أي الأتقياء وهي حركة دينية يهودية ظهرت في العصور الحديثة فانتشرت في منتصف لقرن الثامن عشر على يد حاخامين من المتجربين في الطرق الصوفية الباطنية «انقالة» وفي مقدمتهم الحاحام «بعل شيم طوب» و«زلمان ملودي» وهما من منطقة بولندا، وقد انتشرت ونشطت هذه الحركة في أوروبا الشرقية وجزء من أوروبا الغربية، ويعرف أتباعها بالمتشددون في تطبيق أحكام التعاليم المكتوبة ولشعوية ويمضون لعزلة بأحياء ومستعمرات خاصة بهم ومن أهدافهم إعادة بناء الهيكل وإقامة مملكة لرب في القدس ويعتبر لرقص والموسيقى والعناء من الأشياء الأساسية عند ممارسة العبادات الجماعية، (ظاظا، حس (الفكر لديني يهودي) (ص ٢٦٤)، وفتاح، عرفان عبد الحميد (اليهودية عرض تاريخي) (ص ١١٥)، وحسن، د. جعفر هادي (فرقة الدعوة بين اليهود والإسلام) (ص ٥٥).

على هويتهم الدينية ووجودهم المعنوي كما كان الحال مع الصدوقيين^(١).

ب- تأثيرات الثقافات الأجنبية التي كانت تتزامن عادة وتتولد عن السيطرة الأجنبية المباشرة أو عن عمليات التهجير الجماعية لليهود إلى بيئات جديدة لها مكوناتها الثقافية واضطرر اليهود للدخول معها في تبادل ثقافي كما كان الحال إبان الأسر البابلي^(٢) والهيمنة الهلنستية الوثنية^(٣) أيام الحكم الروماني المباشر على فلسطين (٦٦ - ٧٠ م).

واليهود أنفسهم يعترفون أن معالم اليهودية وبنائها الفكر والعملية إنما ستكمل

(١) الصدوقيون: نسبة إلى «صدوقي» بالعبرية من باب التواضع بمعنى العادلين (أهل العدل) وهم طبقة أرستقراطية عريضة الثراء، وهي حركة تأثرت كثيراً بالثقافة اليونانية فأنكروا البعث وأنكروا التساليم الشموية وأنكروا لقضاء والقدر ويرون أن الإنسان يخلق أفعاله، وينكرون عقيدة المسيح المنتظر، ولا يعتقدون بالجنة أو النار، والإله في نظرهم إله قومي وأنه إله إسرائيل فقط وهم على عكس لفريسيين في كل شيء، وقد اندثر الصدوقيون- مثل أكثر الفرق القديمة- لأن عقيدتهم تتصادم مع عقيدة اليهود في كثير من الأمور (البار، محمد علي) (المدخل لدراسة التوراة) (ص ٢٥٣)، وظاظا، حسن (الفكر لديني اليهودي) (ص ٢١٤)، وشلي، وأحمد (مقارنة الأديان - اليهودية) (ص ٢٣٠)، وفتاح، عرفان عبد الحميد (اليهودية عرض تاريخي) (ص ١٠٢).

(٢) الأسر لبابلي: ويعود تاريخه إلى نهاية مملكتي اليهود وما تبع ذلك من بني وأسر، فقد كانت لليهود مملكة في شمال فلسطين وتسمى مملكة إسرائيل وعاصمتها شكيم (سابلس) ومملكة أخرى في الجنوب وهي مملكة يهوذا وعاصمتها أورشليم. وقد سقطت مملكة إسرائيل على يد سرجون -ملك الآشوريين- سنة (٧٢١ ق م) وبما هذه المملكة من الوجود وأزال شعبها قتلاً وتشريداً ونفى مكه وبعض رجاله إلى مملكته في بابل، أما مملكة يهوذا في الجنوب سقطت حتى زحف فرعون مصر عليها سنة (٦٠٨ ق م) واحتلها وقد استمر زحفه حتى احتل مملكة إسرائيل في الشمال التي استولى عليها الآشوريون، فشار لذلك ملك بابل الحديد (بختنصر) الذي رحف على فلسطين بمملكتيها الشمالية و الجنوبية وألحق أهرمة فرعون مصر وقتل آخر ملوك اليهود في المملكة الجنوبية وبهزب أورشليم ودمر المعبد (هيكل) سنة (٥٨٧ ق م) وسبى أكثر السكان إلى بابل وانتهى بذلك ملك اليهود في فلسطين وعرف هذا السبي بالأسر البابلي أو السبي البابلي (شني، أحمد) (مقارنة الأديان اليهودية) (ص ٩١)، ومصطفى، عبدالعزير (قل أو يهدم الأقصى) (ص ٦٧)، والبار، محمد علي (المدخل لدراسة التوراة) (ص ٩٨-٩٩).

(٣) هلنستية: وهي عبارة عن إطار فلسفي جامع لثقافة وثنية، صادرة عن روح تعددية لا تؤمن بالتوحيد والتزيه وتؤله القيصر الإله، وتفرض عبادته قسراً مع طقوس وثنية أخرى على من يخضع لسلطانها السياسي جبراً (فتاح، عرفان عبد الحميد) (اليهودية عرض تاريخي) (ص ٩٢).

شروطه إبان لأسر البابلي كالتوحيد، وجمع التوراة .. إلخ^(١).

إضافة لما سبق نستطيع أن نقول بأن كثرة المصادر المقدسة عند اليهود والتي كتبت بأيد مختلفة أوجدت أيضاً فرقاً مختلفة، كما أن ظهور العهد الجديد أوجد من اليهود من يفسرون العهد القديم في ضوءه والذي كان له الأثر في إيجاد تفسيرات كثيرة متباينة ومختلفة نادت بها فرق جديدة ومختلفة.

وقد جمع ابن القيم فرق اليهود المختلفة من غير أن يسميها في فرقتين هما (القرآؤون والربانيون)

أولاً: القرآؤون؛

يذكر ابن القيم القرآئين وهم أصحاب «عانان وبنيامين»^(٢) لما راوا الكذب على

(١) فتاح، عرفان عبد الحميد (اليهودية عرض تاريخي) (ص ٩٢) حيث يأتي اعتراف اليهود هذا من المؤرخ اليهودي يوسفوس وهو ما لخص حديثه د. عرفان في كتابه، وقد بين د. عرفان أن من أشهر كتب يوسفوس ثلاثة. وهي: ١- حرب اليهود ٢- العاديات اليهودية ٣- الرد على ييون

(٢) عانان وبنيامين: حيث ذكرهما ابن القيم دون أن يعرف بهما، والحقيقة أن عانان أو (عان) هو عان بن دود الذي أنشأ فرقة القرآئين أيام الخليفة العباسي أبي جعفر المصور (ت ١٥٨ هـ - ٧٧٥ م) وكان عانان مرشحاً لتولي منصب حاخام العراق الأكبر. ونظراً لما عرف به من غلو ونزعة متطرفة في نظر زعماء اليهود الربانيين (نفرسيين) لعدم قبوله تعاليم التلمود، فقد تجاوزوه إلى أخيه الأصغر منه وسموه (حاب) مما تسبب في خروجه عن القوم، وانتشاقه عنهم مؤسساً مذهبه الذي لا يقر ولا يعترف بشرعية التلمود وعرف هو وأتباعه بأبناء الكتاب الخرفيين أو القرآئين، وقد انطلق عانان بعيداً عن أخيه الذي استولى على منصب حاخام العراق الأكبر، حيث ذهب إلى فلسطين وركز فيها حملته على نفرسيين وعلى تعاليم التلمود وأبان زيمها وبطلانها ومصادمتها للعقل والمنطق والدين، ومن الواضح أن عانان بن دود قد تأثر بالفكر الإسلامي ويقول نفرسيون (الربانيون) أن ظهور القرآئين كان بتأثير لمسلمين

أم بنيامين. فهو بنيامين بن موسى النهاوندي من مدينة نهاوند في إيران وهو من كبار علماء هذه الفرقة وهو مؤلف كتابين مهمين بالعبرية أحدهما كتاب الفرائض والآخر كتاب الأحكام (فتاح، عرفان عبد الحميد (اليهودية، عرض تاريخي) (ص ٩٤-٩٥) وظاظا، حسن (الفكر الديني اليهودي) (ص ٢٤٧-٢٥٦) والبار، محمد علي (المدخل لدراسة التوراة) (ص ٢٧٨-٢٨١).

الله وعلى التوراة وعلى موسى من قبل أولئك الذين يعتبرون أنفسهم الفقهاء الذين صنعوا المشنا والتلمود^(١) جيلاً بعد جيل يحرمون فيها ما يشاؤون، كان هذا دافعاً لكي يطرح القراءون كل الترهات التي وضعها الحاخاميم وألفها الفقهاء من الأسلاف قبلهم، والتزموا - أي (القراءون) - بنص التوراة فقط دون تحريف متمسكين بما يقرأ من التوراة الظاهرة مع عدم تحريف وإبطال معانيها^(٢).

ويذكر ابن القيم أن أكثر القرائين قد خرجوا إلى دين الإسلام ونفعهم تمسكهم بالظواهر وطعنهم بالفقهاء الكذابين المفتريين على الله وهم كثرة في فرقة الربانيين الذين زعموا أن الله تعالى كان يخاطب جميعهم في كل مسألة بالصوت الذي يسمونه

(١) المشنا والتلمود: ذكرت عند الكلام عن العريسين أنهم يرون أن التوراة ليس هي كل الكتب المقدسة، وإنما هناك بجانبها روايات شفوية وهذه الروايات هي السن والتقاليد المتوارثة التي تنقل شفهاً جيلاً بعد جيل بطريق الأحاد وهذه الروايات هي التي شكلت التلمود، حيث اكتمل جمعه وشرحه في فترة زمنية طويلة، وفي عام (١٥٠ م) خاف أحد الحاخامات المسمى: «يوحنا» أن تلعب أبدي الضياع بهذه التعاليم الشفوية المتناقلة فجمعها في كتاب سماه «المشنا» والتي تعني «الشرعة المكررة» وقد أدخل حاخامات فلسطين وبابل كثيراً من الزيادات على ما دونه «يوحنا» وقد أتم «الربى يهودا هاناسي» في نهاية القرن الثاني بعد الميلاد تدوين وتمحيص وتدقيق هذه الزيادات وأصحت كلمة «المشنا» تضم كل ما كتب من عهد «يوحنا» إلى عهد «الربى يهودا» ثم أخذ علماء اليهود بعد ذلك يكتبون عليها حواشي وشروحات وتفسيرات سميت «الجمارا» وهي كلمة آرامية تفيد الإتمام.

ومن المشنا والجمارا يتكون التلمود وبما أن الجمارا (أي الشرح) قد حصل في بيتين مختلفتين هما فلسطين غرباً والعراق (بابل) شرقاً فقد أدى ذلك إلى ظهور تلمودين التلمود الغربي وهو الذي يسمى «التلمود لأورشليمي» والتلمود الشرقي وهو الذي يسمى «التلمود البابلوني» ويعتبر التلمود البابلي أفضل من الأورشليمي لأنه كتب في فترة اتسمت في تاريخ اليهودية بالهدوء والاستقرار والتمتع بالحرية في إنشاء مدارس دينية ويعتبر التلمود البابلي أكبر وأرتب من الأورشليمي، (شليمي، أحمد) مقارنة الأديان - اليهودية (ص ٢٧٠)، وفتاح، عرفان عبد الحميد (اليهودية عرض تاريخي) (ص ٨٣)، وظاظا، حسن (الفكر الديني اليهودي) (ص ٦٦-٨٤).

(٢) ابن القيم (هدية الخيارى) (ص ٤٧٢-٤٧٣) تحقيق د. محمد الحاج، وإعانة: اللهمان (٢) ص ٣٠٤-٣٠٥ تحقيق طه سعد.

«بث قول» أي أن الحق مع النقية فلان^(١).

والخلاصة: أن القرّائين يمثلون القلة بين اليهود الذين انفصلوا بأنفسهم عن الفقهاء (الربانيين) والقرّائين أيضاً لا يعترفون إلا بالتوراة (العهد القديم) وليست عندهم روايات شفوية (تلمود) كالذي يؤمن به (الربانيون) ولذلك كانت تسميتهم بالقرّائين لاعتمادهم فقط على الظاهر المقروء من التوراة فقط، وقد أطلق عليهم (العنانية) نسبة إلى عنان بن دود^(٢) وهم مجتهدون في المسائل التي خطأوا فيها السلف من الحاخاميم مثل مسألة (لطريفا) حيث يعتبر الربانيون أكل لحم الطريفا محرّم ويفسرون لطريفا بأنه الحيون الذي ذبحوه وقد وجدوا رثته فيها ثقب، أو أن رثته ملتصقة ببعضها، أو ملتصقة بالقلب أو الظهر حتى لو كان هذا الالتصاق بعرق دقيق كالشعرة اعتبروا هذه الذبيحة رجس ونجس وحرام علماً بأن هذا عدوان منهم وافتراء وكذب لأن معناها في لغتهم وتوراتهم «الفريسة التي يفترسها السبع» ففي التوراة «ولحم فريسة في الصحراء لا تأكلوه»^(٣) فهذا الذي حرّمته التوراة من الطريفا ولهذا السبب وغيره من الحماقات الشنيعة والافتراء الفاحش والكذب الكثير على الله وعلى التوراة خالف القرّاءون الربانيون وانفصلوا بأنفسهم عن هؤلاء الكذابين ولكل من يقول بمقالاتهم^(٤) وقد انتهت فرقة القرّائين بظهور بعض العلماء الذين تصدوا لها ومن أبرز هؤلاء العلماء سعيد بن يوسف الفيومي الذي كان له الأثر الكبير في ضعف هذه الفرقة والتي تحولت أخيراً إلى أقلية المنحصر وجودها في تركيا

(١) ابن القيم (هداية الحارثي) (ص ٤٧٢-٤٧٣) تحقيق د. محمد الحاج، و(إعانة الهمام) (٢/ ص ٣٠٤-

٣٠٥) تحقيق طه سعد

(٢) السقا، أحمد حجازي (نقد التوراة) (ص ٦٤)

(٣) الخروج (٢٢/ ٣٠).

(٤) ابن القيم (هداية الحارثي) (ص ٤٧٢-٤٧٣)، تحقيق د. محمد الحاج، و(إعانة الهمام) (٢/ ص ٣٠٤-

نفس المحققين

ومصر وفي فلسطين قرب الرملة وتل أبيب ويقدر عددهم بعشرة آلاف نسمة^(١)

ثانياً: الربانيون:

وهم الفرقة الثانية التي تحدث عنها ابن القيم ووصفهم بأصحاب القياس مؤكداً أنهم أكثر عدداً من القرائين، وفيهم الحاخاميم المقترون على الله تعالى الكذب، أصحاب الحماقات والتنطع، والدعاوي الكاذبة، وهم الذين يزعمون أنهم كانوا إذا اختلفوا في شيء من المسائل يوحى الله تعالى إليهم بصوت يسمعه جمهورهم يقول: الحق في هذه المسائل مع الفقيه فلان، ويسمون هذا الصوت: «بث قول» ويعتبرهم ابن القيم أنهم من أشد اليهود عداوة لغيرهم من الأمم فينظرون إلى من ليس على ملتهم ومذهبهم كما ينظرون إلى الحيوان البهيم، وينظرون كذلك إلى ذبائح الأمم ومآكلهم كما ينظرون إلى العذرة، ويذكر عنهم ابن القيم أن حاخاميم كلما كانوا أكثر تكلفاً وأشد إصراراً، وأكثر تحريماً قالوا: هذا هو العالم الرباني، وهم أبداً يعتقدون الصواب والحق مع من يتشدد ويضيق عليهم.

ويذكر ابن القيم أن الذي يدعوهم للتضييق والتشديد على أنفسهم خوفاً من اختلاط مذاهب الأمم بهم فيؤدي ذلك بهم إلى موافقتهم والخروج من اليهودية دينهم^(٢).

وخلاصة القول فإن هذه الفرقة كما بينهم ابن القيم يميزون أنفسهم على غيرهم ولذلك فقد أطلق عليهم اسم الفريسيون (الفريزيون) أي المفروزين الذين امتازوا عن الجمهور وأصبحوا لعلمهم وورعهم واتصافهم بأسرار الشريعة من الصفوة المختارة، فالعامة من غيرهم يوصفوا بأنهم «عام هاآرص» أي عوام الأرض^(٣) وهي صفة ذم

(١) فتاح، عرفان عبد الحميد، (اليهودية مرص تاريخي) (ص ٩٥-٩٦).

(٢) ابن القيم (هداية الحيارى) (ص ٤٧٤)، تحقيق د. محمد الحاح.

(٣) ظاظا، حسن (الفكر الديني اليهودي) (ص ٢١٠).

وهؤلاء الربانيون (الفريسيون) يؤمنون - إلى جانب التوراة - بالتلمود وأن للحاخامات سلطة عليها وصفة العصمة بحيث لو قال لك الحاخام أن يدك اليمنى هي اليسرى وبالعكس فصدق قوله ولا تجادله^(١) وعندهم أن العالم لم يخلق إلا من أجل اليهود ولو لم يخلق اليهود لانعدمت البركة في الأرض، وهي من الفرق المشتهرة بالكذب والنفاق وبيع الذبائح المقررة على اليهود وأكل أموال الناس بالباطل، واهتموا بالشكليات والرياء في العبادة واشتهروا أيضاً بوضع الحيل للتخلص من قوانين الشريعة، وتعتبر هذه الفرقة من أشد فرق اليهود عتواً وتجبراً^(٢).

المطلب الثاني

منهج التحليل والنقد عند ابن القيم في إثبات تحريف التوراة

أنعم الله تعالى على بني إسرائيل بالتوراة^(٣) فيها هدى ونور، متضمنة العقيدة

(١) شلي، د. أحمد (مقارنة الأديان - اليهودية) (ص ٢٢٧-٢٢٨)

(٢) البار، محمد علي (المدخل لدراسة التوراة) (ص ٢٤١-٢٤٩).

(٣) لتوراة وهي كلمة عبرانية تعني الشريعة أو التعليم وهي تطلق على الأسفار الخمسة بالدرجة الأولى وقد تطلق - مجازاً أو توسعاً - على العهد القديم (Old Testament) وقد اختلف في عدد أسفاره لكنه يقسم إلى ثلاثة أقسام الأول الأسفار الخمسة الأولى، وهي التي أنزلها الله على موسى في طور سيناء وهي كما يلي:

١- سفر لتكوين (سفر الخلق) وفيه ذكر خلق العالم وقصة آدم ونوح والطوفان وإبراهيم وأولاده حتى هجرة العبرانيين إلى مصر بسبب القحط ويقع في خمسين فصلاً.

٢- سفر الخروج أي خروج اليهود من مصر وفيه قصة حياة موسى عليه السلام وعرعون وخروج بني إسرائيل من مصر وصعود الجبل وإيتاء الله تعالى له الألواح - الوصايا العشر - ويقع في أربعين فصلاً.

٣- سفر اللاويين (سفر الأحبار): مقرر لأمر الشرائع والطقوس الكهوتية تشعل لمكان لأول وفيه من الأحكام والقرائن والحدود وما يجوز أكله وحكم العريان والطهارة - إلخ ويقع في سبعة وعشرين فصلاً.

والشريعة، وقد أنزلها الله سبحانه على موسى رسوله إلى بني إسرائيل ليلزمهم بأحكامها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [بمرة ٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [لمدة ٤٤]، وفي سفر التثنية وهذه هي الشريعة التي وضعها موسى لبني إسرائيل مع الفرائض والسنن والأحكام التي كلم بها موسى بني إسرائيل عند خروجهم من مصر^١.

ومن المعلوم أن موسى - عليه السلام - قد أعطى بني إسرائيل نصف سورة بحيث

إصحاحاً.

٤- سفر العدد^٢ وسمي بهذا البروز ظاهرة التعداد حيث يورد إحصاء تفصيلي للشعب الراحل مع موسى في الصحراء، كما أن الأعداد المية للأعداد والأرقام حول الدبائح وعدد المدن والقرى ونحو ذلك تكثر فيه كثرة تلفت النظر وفيه بعض الشرائع وأخبار موسى وبني إسرائيل في لمبة وقصة المعجزة وهو ستة وثلاثون إصحاحاً.

٥- سفر التثنية (سفر تشية الاشرع) أي إعادة الشريعة وتكرارها على بني إسرائيل مرة ثانية عند خروجهم من سيناء ووصولهم إلى سهول القرب وجنوب الأردن، وفيه الأخبار الهامة والوصايا والحكم والإنذارات ونشيد موسى للشعب ويقع في أربعة وثلاثين إصحاحاً وهذه الأسفار الخمسة الأولى (توراة) تعتبر لقسم الأول من العهد القديم أما القسم الثاني فيحتوي على أسفار الأنبياء الذي يتحدث عن تاريخ بني إسرائيل بعد موت موسى إلى خراب الهيكل والسي البابلي، أما القسم الثالث فهو الكتب والصحف ويعنى بالحكم والأمثال والمزامير والأخبار التاريخية الخاصة باليهود بعد خراب الهيكل.

وعموماً فإن كلمة التوراة وردت في القرآن الكريم ثمانين عشرة مرة وهذه الآيات هي: (٩٣، ٦٥، ٥٠، ٤٨، ٤٣) مرتين، كن هذه الآيات في سورة آل عمران) أما في المائدة فهي آيات (٤٣)، (٤٤، ٤٦ مرتين، (٦٨، ٦٦، ١١٠) (وفي سورة الأعراف الآية رقم ١٥٧، وفي التوبة الآية ١١١، وفي الفتح الآية ٢٩، وفي الصف الآية ٦، وفي الجمعة الآية ٥) (شتيوي، د. محمد شلي) (التوراة دراسة وتحليل) (ص ٩-١٠) وظاظاً، حسن (الفكر الديني اليهودي) (ص ١٤-١٦) وفتاح هرفان عبد الحميد (اليهودية عرض تاريخي) (ص ٧٢-٧٤)

(١) التثنية (٤/ ٤٤-٤٥)

لا تنسى من أفواههم يقول ابن القيم: «ولم يبدل موسى عليه السلام من التوراة لبني إسرائيل إلا نصف سورة»^(١) ويبين ابن القيم أن هذه السورة مشتملة على دم طبائعهم، وأنهم سيخالفون شرائع التوراة، وأن السخط يأتهم بعد ذلك، وتخرب ديارهم، ويسبون في البلاد. فهي كالشاهد عليهم^(٢).

ويستنتج ابن القيم من ذلك أن غيرها من السور ليس كذلك وأنه يجوز أن ينسى من أفواههم، وهذا يدل على أن موسى عليه السلام قد دفع ببقية التوراة إلى أولاد هارون وجعلها فيهم وصانها عن سواهم، وهؤلاء الأئمة الهارونيون قد قتلهم بختنصر على دم واحد يوم استولى على بيت المقدس كما يذكر ابن القيم حيث تابع رحمه الله قائلاً: «فلما رأى عزرا أن القوم قد أحرق هيكلمهم، وزالت دولتهم، وتفرق جمعهم، ورفع كتابهم جمع مع محفوظاته، ومن الفصول التي يحفظها الكهنة ما اجتمعت منه هذه لتوراة التي بأيديهم ولذلك بالغوا في تعظيم عزرا هذا غاية المبالغة»^(٣) قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىرُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [نوح: ٣٠].

ولهذا فإن الله سبحانه قد توعد بالهلاك هؤلاء الذين يكتبون التوراة بأيديهم فيحرفونها ويدسون فيها الأكاذيب والإفتراءات موهمين الناس أنها من عند الله ليشتروا بهذا الفعل المنكر ثمناً قليلاً هو الاحتفاظ بمراكزهم وأكل أموال الناس بالباطل، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

وهنا يؤكد ابن القيم ما قامت به أمة الغضب - كما يصفهم - من أحداث التغيير والتبديل والتحريف والزيادة والنقصان وسوء التأويل ونحو ذلك حيث قال رحمه الله

(١) ابن القيم (إحاثة اللهايات) (٢/ ٣٢٥) تحقيق طه سعد.

(٢) نفس المرجع السابق، (٢/ ٣٢٦) نفس المحقق.

(٣) نفس المرجع السابق، (٢/ ٣٢٦) نفس المحقق.

واصفاً التوراة التي بأيديهم الآن قائلاً: «وفي التوراة التي بأيديهم من التحريف والتبديل، وما لا تجوز نسبته إلى الأنبياء ما لا يشك فيه ذو بصيرة، والتوراة التي أنزلها الله على موسى بريثة من ذلك»^(١) وهنا نستذكر قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة ١٣).

ومن الملاحظ أن ابن القيم رحمه الله قد فرق بين التوراة المنزلة على موسى عليه السلام وبين التوراة التي بأيديهم الآن والتي أرجع ابن القيم كتابتها تاريخياً إلى زمن السبي البابلي كما أنه رحمه الله بجانب هذا أكد وقسوع التحريف في ذات نصوص التوراة، وهو هنا يعتمد على ركنين أساسيين في إثباته تحريف التوراة:

الركن الأول:

استكشافه للعوامل التاريخية وذلك من خلال تفحصه للظروف التاريخية التي مرت بها التوراة من زمن موسى عليه السلام وماتلاه من وقوع اليهود في الشرك والكفر ولحو ذلك ومن نسيانهم أيضاً ولذلك بين ابن القيم لماذا لم يدفع موسى عليه السلام بكل التوراة إلى بني إسرائيل سوى ما بذله لهم من نصف سورة، وهذا يدل تاريخياً أن اليهود بأخبارهم وحاخاميهم وحرّفوا في نصوص التوراة بعد وفاة موسى عليه السلام بعد أن ضاعت التوراة من تابوت العهد، وأكد ابن القيم أن التحريف تاريخياً وقع في ذلك الزمن الذي جمع فيه عزرا والكهنة فصولاً من محفوظاتهم وما تلا ذلك من دور أمة الغضب في تحريفها وتبديلها.

(١) ابن القيم، (هداية الحيارى) (ص ٤١٦).

الركن الثاني :

تمحيص النصوص وذلك بفضح ألاعيبهم وكشف أكاذيبهم وافتراءاتهم التي ملأت التوراة بحيث بدت مخالفة لصريح المنقول والمعقول لتكون شاهداً على وقوع التحريف فيها.

وقد أورد ابن القيم أمثلة كثيرة من نصوص التوراة أثبت من خلال منهج التحليل والنقد وقوع التحريف فيها، وسأكتفي بذكر بعض الأمثلة التي ساقها ابن القيم في التدليل على ذلك وقد استعان إلى جانب تحليله ونقده بالقرآن الكريم في معرض رده على كذبهم، وبكلام علمائهم أحياناً أخرى في رده على من ينكر تحريفها من اليهود أنفسهم.

واليك بعض هذه الأمثلة :

ما رموا به رب العالمين بكذبهم حيث قالوا في التوراة: «إن الله استراح في اليوم السابع من خلق السموات والأرض»^(١)، وقد رد ابن القيم على كذبهم هذا بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، أي تعب.

قولهم في بعض دعاء صلواتهم: «انتبه كم تنام يا رب استيقظ من رقدتك»^(٢)

ويوضح ابن القيم بأنهم قد تجرأوا على رب العالمين بهذه المناجاة القبيحة كأنهم يناجونهم وينخبرونه أنه قد اختار الخمول لنفسه وأحبائه، فيهزؤونه بهذا الخطاب للنباهة واشتهار الصيت، ويرد ابن القيم على كلامهم هذا بما استعانه من كلام علمائهم الذين أسلموا حيث يقول: «قال بعض أكابرهم بعد إسلامه»^(٣) فترى أحدهم إذا تلا

(١) التكوين (٢ ٢) وقد أورد ابن القيم ورد عليه في (هداية الحيارى) (ص ٤١٨-٤١٩).

(٢) مزامير (٢٣/٣٥، ٢٤/٤٤).

(٣) المقصود به هو السموأل بن يحيى المغربي، وهذه العبارة التي نقلها ابن القيم عند السموأل في كذبه (إفحام اليهود) (ص ١٣١) تحقيق الشرفاوي.

الركن الثاني :

تمحيص النصوص وذلك بفضح ألاعيبهم وكشف أكاذيبهم وافتراءاتهم التي ملأت التوراة بحيث بدت مخالفة لصريح المنقول والمعقول لتكون شاهداً على وقوع التحريف فيها.

وقد أورد ابن القيم أمثلة كثيرة من نصوص التوراة أثبت من خلال منهج التحليل والنقد وقوع التحريف فيها، وسأكتفي بذكر بعض الأمثلة التي ساقها ابن القيم في التدليل على ذلك وقد استعان إلى جانب تحليله ونقده بالقرآن الكريم في معرض رده على كذبهم، وبكلام علمائهم أحياناً أخرى في رده على من ينكر تحريفها من اليهود أنفسهم.

واليك بعض هذه الأمثلة :

ما رموا به رب العالمين بكذبهم حيث قالوا في التوراة: «إن الله استراح في اليوم السابع من خلق السموات والأرض»^(١)، وقد رد ابن القيم على كذبهم هذا بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، أي تعب.

قولهم في بعض دعاء صلواتهم: «انتبه كم تنام يا رب استيقظ من رقدتك»^(٢)

ويوضح ابن القيم بأنهم قد تجرأوا على رب العالمين بهذه المناجاة القبيحة كأنهم يناجونهم وينخبرونه أنه قد اختار الخمول لنفسه وأحبائه، فيهزؤونه بهذا الخطاب للنباة واشتعار الصيت، ويرد ابن القيم على كلامهم هذا بما استعانه من كلام علمائهم الذين أسلموا حيث يقول: «قال بعض أكابرهم بعد إسلامه»^(٣) فترى أحدهم إذا تلا

(١) التكوين (٢ ٢) وقد أورد ابن القيم ورد عليه في (هداية الحيارى) (ص ٤١٨-٤١٩).

(٢) مزامير (٢٣/٣٥، ٢٤/٤٤).

(٣) المقصود به هو السموأل بن يحيى المغربي، وهذه العبارة التي نقلها ابن القيم عند السموأل في كذبه (إفحام اليهود) (ص ١٣١) تحقيق الشرفاوي.

هذه الكلمات في صلاته يقشعر جلده ولا يشك أنه كلام يقع عند الله بموقع عظيم وأنه يؤثر في ربه، ويحركه لذلك ويهزه وينخيه فكذبهم الله بقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [نقرة ٢٥٥] وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى ٥١] وقوله تعالى مخاطباً موسى: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ [الأعراف ١٤٣].

نسبة العجز والضعف لله سبحانه وتعالى ومن ذلك ما ذكره في توراتهم من أن الله تصارع مع يعقوب وهذا مخالف لصريح المنقول والمعقول.

نسبة الزنا والفاحشة للأنبياء وقد سبق أن بينت ما رموا به لوطاً عليه السلام وذلك عند حديثنا عن بيان ابن القيم لموقف اليهود من أنبيائهم من هذا البحث.

وفيها أن الله تجلى لموسى في سيناء وقال له بعد كلام كثير أدخل يدك في حجري وأخرجها مبروصة كالثلج^(١) وينقد ابن القيم هذا النص مبيناً أن الله سبحانه لم يتجل لموسى وإنما أمره أن يدخل يده في جيبه وأخبره أنها تخرج بيضاء من غير سوء أي من غير برص^(٢).

وفيها: «أن هارون هو الذي صاغ لهم العجل»^(٣) ويعتبر ابن القيم أن هذا زيادة وافترء في كلامهم لأن هارون هو اسم السامري الذي صاغه، وليس هو بهارون أخي موسى^(٤).

وفيها: «أن الله قال لإبراهيم إذبح ابنك برك اسحاق»^(٥). ويعتبر ابن القيم أيضاً

(١) الخروج (٤/٦).

(٢) ابن القيم (هداية الخيارى) (ص ١٧٤) تحقيق د. محمد الحاج

(٣) الخروج (٣٢/٢-٤).

(٤) ابن القيم (هداية الخيارى) (ص ١٧٤) نفس المحقق.

(٥) التكوين (٢٢/١-١٣).

أن اسم إسحاق في هذا النص من زيادتهم وافترائهم وبيتهم وجمعهم بين لنقيضين لأن بكره هو إسماعيل وأما إسحاق فقد بشر به على الكبر بعد قضية الذبح^(١)

ومما أورده ابن القيم مدعماً لقوله في إثبات تحريف التوراة اعتراف ليهود أن لسبعين كاهناً اجتمعوا على اتفاق من جميعهم على تبديل ثلاثة عشر حرفاً من لتوراة وذلك بعد المسيح في عهد القياصرة الذين كانوا تحت قهرهم حيث زال الملك عنهم ولم يبق لهم ملك يخافونه ويأخذ على أيديهم، وقد استدل ابن القيم من هذا التبديل الذي قاموا به أن من رضي بتبديل موضع واحد من كتاب الله، فلا يؤمن منه تحريف غيره^(٢).

ما ذكره ابن القيم من أن اليهود يقرون أن السامريين حرفوا مواضع في التوراة وبدلوها تبديلاً ظاهراً وزادوا ونقصوا والسامريون يدعون تدعي ذلك عليهم، فهذه المنازعات تدل على أن كلا منهما قام بتحريف التوراة بالفعل^(٣)

هذه لأمثلة التي قام ابن القيم بتحليلها ونقدها وردّها بآيات القرآن الكريم وإثبات تحريفها من خلال ما قالوه واعترفوا به أنفسهم هي غيظ من غيظ وإنما اكتفيت بذكر بعضها للدلالة على منهج ابن القيم الجامع في نقده وردّه على افتراءاتهم من خلال تحليله الذي ظهر فيه بغيرته على دينه وحرصه على حماية سياجه من كيد أمة الغضب فقد كان رحمه الله بارعاً في رد شبهاتهم وإثبات تحريفاتهم فرحمه الله رحمة واسعة.

ونتهي حديثنا بإجمال قول ابن القيم في رأي علماء المسلمين الذين اختلفت نظرهم في كيفية تحريف التوراة وفي هذا يقول ابن القيم: «وقد اختلفت أقوال الناس

(١) ابن القيم (هداية الخيارى) (ص ٤١٧) نفس المحقق.

(٢) ابن القيم (هداية الخيارى) (ص ٤١٦).

(٣) ابن القيم (هداية الخيارى) (ص ٤١٦).

في التوراة التي بأيديهم: هل هي مبدلة؟ أم التبديل والتحريف وقع في التأويل دون التنزيل؟^(١)

وقد أورد ابن القيم رحمه الله ثلاثة أقوال في هذه المسألة ولم يرجح واحداً منها سوى أنه وصفها بقوله: «ثلاثة أقوال طرفين ووسط»^(٢) وسأذكر رأيه رحمه الله في هذه المسألة من خلال حديثه عن التوراة الموجودة ليوم وإليك الأقوال الثلاثة التي ذكرها ابن القيم رحمه الله في كتابه إغاثة اللهفان^(٣).

القول الأول (لطائفة الطرف الأول)^(٤):

وقد أفرط وزعم أصحاب هذا القول حينما قالوا إن التوراة كلها أو أكثرها مبدلة مغيرة، ليست هي التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام، وتعرض هؤلاء لتناقضها، وتكذيب بعضها البعض، وقد غلبا بعضهم فجوز الاستجمار بها من البول.

القول الثاني (لطائفة الطرف الثاني): وهم من أئمة الحديث والفقهاء والكلام.

قالوا بأن التبديل وقع في التأويل لا في التنزيل وهذا مذهب أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري قال في صحيحه: «يخرفون: يزيلون، وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله تعالى ولكنهم يخرفونه: يتأولونه على غير تأويله» وهذا اختيار الرازي في

(١) ابن القيم (إعانة اللهفان) (٢/ ٣٢١) تحقيق طه سعد.

(٢) ابن القيم (إعانة اللهفان) (٢/ ٣٢١) تحقيق طه سعد.

(٣) نفس المرحوم (ص ٣٢١-٣٢٣) نفس المحقق.

(٤) ومن علماء هذا الطرف ثقاتين به ابن حزم في كتابه (المفصل) واسموا بن يحيى في كتابه إفحام اليهود

تفسيره وحجتهم كما ينقلها ابن القيم رحمه الله: «أن التوراة قد طبقت مشارق الأرض ومغاربها، وانتشرت جنوباً وشمالاً، ولا يعلم عند نسخها إلا الله تعالى، ومن الممتنع أن يقع التواطؤ على التبديل والتغيير في جميع تلك النسخ بحيث لا يبقى في الأرض نسخة إلا مبدلة مغيرة، والتغيير على منهاج واحد وهذا مما يحيله العقل ويشهد ببطلانه، فقد قال الله لنبه ﷺ محتجاً على اليهود بها: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الكهف: ٩٣] قالوا: وقد اتفقوا على ترك فريضة الرجم، ولم يمكنهم تغييرها من التوراة، ولهذا لما قرأوها على النبي ﷺ وضع القارئ يده على آية الرجم، فقال له عبدالله بن سلام: «إرفع يدك عن آية الرجم» فرفعها فإذا هي تلوح تحتها، فلو كانوا قد بدلوا ألفاظ التوراة لكان هذا من أهم ما يبدلونه.

القول الثالث (لطائفة الوسط): ومنهم شيخ الإسلام (ابن تيمية)

وقالوا: قد زيد فيها، وغير ألفاظ يسيرة منها، ولكن أكثرها باق على ما أنزل عليه، والتبديل في اليسير منها جداً، قال ابن القيم: «ومن اختار هذا القول شيخنا في كتابه (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)، وقد أورد ابن القيم حجة شيخه التي استدل بها على هذا القول بقول ابن تيمية: «وهذا كما في التوراة عندهم أن الله سبحانه وتعالى قال لإبراهيم عليه السلام: «إذبح ولدك بكرك، ووحيدك إسحاق»، «ووحيدك إسحاق» زيادة منهم في لفظ التوراة، حيث بين ابن تيمية أن هذه الزيادة باطلة من عشرة أوجه^(١).

(١) وقد ذكر ابن القيم العشرة أوجه التي أوردها ابن تيمية في كتابه، (إعانة اللهيان) (٢/ ص ٣٢٣-٣٢٥) لمن أراد الاطلاع عليها لأن ما يهمنا هو بيان الزيادة المتمثلة في لفظة (إسحاق) كشاهد ودليل على ما ذهب إليه أصحاب هذا القول.

رأى ابن القيم رحمه الله :

وقد تمثل رأيه رحمه الله في قوله: «فهذه التوراة التي بأيديهم في الحقيقة كتاب عزرا وفيها كثير من التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام، ثم تداولتها أمة قد مزقتها الله كل ممزق وشتت شملها فلهذا ثلاثا أمور:»^(١)

أحدها: بعض الزيادة والنقصان: (ودليل الزيادة ما ذكر أن لفظه إسحق زيادة منهم في لفظ التوراة، أما ما جاء كدليل على النقصان فكثير جداً ومن ذلك ما أورده رحمه الله الهندي في كتابه إظهار الحق (ص ٥١٣)، وما بعدها من تحقيق د. محمد ملكاوي ومن أمثلة ذلك ما جاء في التوراة في سفر الخروج (٢٠ / ٦) فولدت له هارون وموسى ومريم اختهما فلفظ مريم اختهما سقط من العبرانية من طبعتي سنة (١٨٤٤م) وسنة (١٨٦٥م) وما بعدها).

والثاني: اختلاف الترجمة، ومثال ذلك أنهم سمعوا في التوراة «يكون ثمار أرضك تحمل إلى بيت الله ربك لا تنضج الجدي بلبن أمه» والمراد من ذلك كما ينقله ابن القيم عن السموأل^(٢) أنهم أمروا عقيب افتراض الحج عليهم أن يستصحبوا معهم إذا حجوا أبكار أغنامهم وأبكار مستغلات أرضهم لأنه كان فرضت عليهم قبل ذلك أن تبقى سخولة الغنم والبقر وراء أمها سبعة أيام وفي اليوم الثامن فصاعداً يصلح أن تكون قرباناً فأشار في هذا النص بقوله: «لا ينضج الجدي بلبن أمه» إلا أنهم لا يبالغون في إطالة مكث بكور أولاد البقر والغنم وراء أمها بل يستصحبون أبكارهم اللاتي عبرت سبعة أيام منذ ميلادهن معهم إذا حجوا ليتخذوا منها القرابين فتوهم المشايخ البله المترجمون لهذه الآية أن المشرع يريد بالانفتاح هذا انفتاح الطيخ في القدر وأنهم نهوا أن يطبخوا لحم الجدي باللبن.

(١) ابن القيم (إغاثة اللهيان) (٢/ ص ٣٢٦-٣٢٩) تحقيق طه سعد.

(٢) السموأل بن يحيى (إفحام اليهود) (ص ١٤١-١٤٢)، وعبد ابن القيم في (إغاثة اللهيان) (٢/ ٣٢٩).

والثالث: اختلاف التأويل والتفسير، ومن أمثلة ذلك:

أ- قولهم في التوراة «ولحم فريسة في الصحراء لا تأكلوه وللكلاب القوة»^(١) حيث يعتبر الربانيون أكل لحم الطريفا محرم ويفسرون الطريفا بأنه الحيوان الذي ذبحوه وقد وجدوا رثته فيها ثقب أو ملتصقة ببعضها أو بالقلب حتى لو كان هذا الالتصاق بعرق دقيق كالشعرة اعتبروا هذه الذبيحة رجس ونجس وحرام.

ب- قولهم في التوراة «نبياً أقيم لهم من وسط أخوتهم مثلك» وقد أولوا هذا النص لأنه لم يمكنهم أن يبدلوا تنزيله، فقالوا أن هذه البشارة بنبي من بني إسرائيل حيث اعتبروا أن إخوتهم وإخوة القوم هم بنو أبيهم وهو بنو إسرائيل، والحقيقة أن هذا تأويل فاسد لأنه لو كان النبي من بني إسرائيل لقال نبياً من أنفسهم.

ج- قولهم في التوراة: «جاء الله تعالى من طور سيناء، وأشرق من سعير، واستعلن من جبال فاران» وقد أولوا هذا النص معتبرين جبال فاران على أنها جبال الشام والحقيقة أنها تعني جبال مكة وهي بشارة بنو محمد ﷺ وقد تقدم أيضاً بيان تحريفهم لهذا النص، وهو من تحريف التأويل^(٢)، حيث أن اليهود لا يعترفون بفاران على أنها مكة ويقولون أنها أرض الشام وهذا من بهتهم وتحريفهم لأن إسماعيل عليه السلام لما فارق أباه سكن في بركة فاران وهي جبال مكة وعندهم في التوراة أن إبراهيم أسكن هاجر وإسماعيل فاران.

المطلب الثالث

بيان ابن القيم لطرق التحريف عند اليهود

بين بعض العلماء طرق التحريف التي استخدمها أحبار بني إسرائيل في التوراة،

(١) التوراة، الخروج (٣٠/٢٢).

(٢) ابن القيم (إغاثة اللهفان) (٢/ ص ٣٢٦-٣٢٩) تحقيق: طه سعد.

وقد استدلوا على ذلك بما ورد في القرآن الكريم من آيات تفضح ألاعيبهم وأنواع تحريفاتهم وقد استدل ابن القيم رحمه الله بهذه الآيات ثم بين طرق التحريف عندهم، حيث أجمل هذه الطرق بأمور ثلاثة سبق أن ذكرناها وهي:

أ- تحريف بالزيادة والنقصان.

ب- تحريف باختلاف الترجمة.

ج- تحريف باختلاف التأويل والتفسير.

وقد فصل ابن القيم رحمه الله هذه الأمور بطرق عديدة بحيث تأخذ أشكالاً مختلفة وجعلها في خمسة طرق، إلا أنه رحمه الله قد ذكر آيات القرآن الكريم التي استدل بها على هذه الطرق في البداية ثم بعد ذلك عدد طرق التحريف، ونحن إن شاء الله سنعمل على دمج هذا الموضوع بحيث نذكر كل وسيلة من وسائل التحريف من خلال استرشاد واستدلال ابن القيم على ذلك.

ومن هذه الأشكال والطرق التي فصلها ابن القيم وذكرها في خمسة طرق ما يلي: ^(١)

وقبل أن نبدأ بذكرها ننبه إلى أن ابن القيم رحمه الله قد اكتفى بذكرها وذكر الآيات دون تعليق أو تفسير، لذا سنشرح بعض الأمور إن اقتضى الحال.

يقول ابن القيم: «وأما التحريف فقد أخبر الله سبحانه وتعالى عنه في مواضع متعددة وكذلك لي اللسان بالكتاب ليحسبه السامع منه وما هو منه فهذه خمسة أمور» ^(٢).

(١) ورد هذا الموضوع عند ابن القيم في كتابه (هداية الخيارى) (ص ٣١١-٣١٣) تحقيق د محمد الحاح.

(٢) ابن القيم (هداية الخيارى) (ص ٣١٢)، نفس المحقق.

أحدها لبس الحق بالباطل:

• وهو خلطة بحيث لا يتميز الحق من الباطل قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران ٧١].

ومن الواضح أن بني إسرائيل - الكهنة منهم وغيرهم - كانوا يخلطون الحق بالباطل ليضللو الناس ويصرفونهم عن الحق، ولكي يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، وقد ذكر د. شتيوي في كتابه^(١) «أن بني إسرائيل كانوا يجعلون الحلال حراماً، والحرام حلالاً، والحق باطلاً، والباطل حقاً، فإذا جاءهم المحسن برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب فهو فيه محق، فالكهنة كانوا يخرجون التوراة لمن جاءهم برشوة كشاهد يقرهم على ما يفعلون، فإن جاءهم أحد يسألهم شيئاً ليس له حق ولا رشوة ولا شيء أمروه بالحق» وفي ضوء ما سبق من إلباس الحق بالباطل يقول ابن عباس: «لا تخلطوا الحق بالباطل والصدق بالكذب»^(٢). وذكر الزمخشري بأنهم كانوا يكتبون في التوراة ما ليس فيها^(٣)، ومثال ذلك اتهام هارون عليه السلام بأنه الذي صنع لهم العجل وأمرهم بعبادته^(٤).

الثاني كتمان الحق:

• وكتمان الحق مرتبط أيضاً بإلباس الحق بالباطل كما في الآية التي استشهد بها بن القيم وبينها قبل قليل، وقد أورد ابن القيم أيضاً قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة ١٥٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا

(١) شتيوي، د. محمد شلي (التوراة دراسة وتحليل) (ص ٧٥).

(٢) ابن كثير، أبو العلاء إسماعيل، (تفسير القرآن العظيم) (١/ ٨٤).

(٣) الزمخشري، محمود بن عمر، (تفسير الكشاف) (١/ ٣٦٩).

(٤) شتيوي، د. محمد شلي (التوراة دراسة وتحليل) (ص ٧٥).

أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿البقرة: ١٧٤﴾

وبنو إسرائيل عندما يكتمون الحق لا يريدون إلا تلبية رغباتهم الفاسدة وإخضاع آيات الله لأهوائهم الباطلة فالآيات التي يرون فيها منفعة تعود عليها يقرونها وأما غير ذلك فإنهم ينكرونها ويكتمرن الحق الذي فيها، قال تعالى مخاطباً بني إسرائيل: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ * وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤١-٤٢]

وإن من أهم أمثلة كتمانهم الحق إنكارهم لصفة محمد ﷺ في التوراة مع العلم أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقد نقل البار في كتابه^(١) ما روته صفية^(٢) بنت حيي بن أخطب^(٣) زعيم اليهود وزوج النبي ﷺ بعد أن أسلمت أن عمها سأل أباهما عن النبي ﷺ عندما قدم المدينة قائلاً: «أهو هو النبي الذي كنا نتظر؟» فقال حيي بن أخطب: «والله إنه هو النبي ولكننا والله لا نؤمن به».

(١) البار، د. محمد علي، (المدخل لدراسة التوراة) (ص ١٢٠-١٢١)

(٢) صفية: وهي صفية بنت حيي بن أخطب من الخزرج من أزواج النبي ﷺ كانت في الجاهلية تدين باليهودية، وهي من أهل المدينة تزوجها سلام بن مشكم القرظي ثم فارقها فتزوجها كنانة بن الربيع النضري وقتل عنها يوم خيبر، وأسلمت فتزوجها رسول الله ﷺ لها في كتب الأحاديث (١٠) أحاديث، توفيت في المدينة سنة خمسين، العسقلاني، أحمد بن علي (الإصابة في تمييز الصحابة) (٢١٠/٨) تحقيق عادل عبدالموجود وعلي معوض.

(٣) حيي ابن أخطب: هو من سبط لاوي بن يعقوب ثم من ذرية هارون بن عمران، جاهلي من الأشداء العتاة كان ينعت بسيد الحاضر والبادي، أدرك الإسلام وأذى المسلمين فأسروه يوم قريظة ثم قتلوه، الزركلي، خير الدين (الأعلام) (٢/٢٩٢)

وقد بينت سابقاً ما نقله ابن القيم رحمه الله من كتمانهم لصفة محمد ﷺ في كتبهم حسداً منهم أن يظهر من العرب نبي وإذا قيل لهم أنه بصفاته في توراتكم كتموا ذلك وقالوا ليس هو ونحن ننتظره.

الثالث:

• إخفاؤه وهو قريب من كتمان، أما الفرق بينهما فقد بينه الدكتور البار والدكتور شتيوي^(١)، معتبرين أن الكتمان يكون للأمر العظيم مثل نبوة محمد ﷺ حقداً وكراهية لهذا الأمر أما الإخفاء فهو للأمر الذي فيه خزي لهم أو أمر سيء وقع بهم فهم يخفونه لئلا يفتضح أمرهم بين الناس ومن أمثلة ذلك إخفاءهم حكم الرجم للزاني والزانية في توراتهم وقد فضحهم الله على يد عبدالله بن سلام رضي الله عنه، وقد سجل القرآن الكريم على بني إسرائيل أنهم كانوا يخفون كثيراً من التوراة وقد استدلل ابن القيم بقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٥].

الرابع:

• تحريف الكلم عن مواضعه وهو نوعان: تحريف لفظه، وتحريف معناه.

وفي هذا النوع يعمد بنو إسرائيل لوضع كلمة مكان كلمة أو جملة مكان جملة قال بعض العلماء وهذا هو تحريف التبديل وقد يكون بزيادة كلمة أو جملة وهو تحريف بالزيادة وقد يكون بإسقاط كلمة أو جملة وهو تحريف بالنقص^(٢)، أما تحريف معناه فيكون بصرف المعنى إلى معنى آخر غير مقصود^(٣)، قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ

(١) د. البار، محمد علي (المدخل لدراسة التوراة) (ص ١٢١)، د. شتيوي، محمد شلي، (التوراة دراسة وتحليل) (ص ٨٠).

(٢) شتيوي، د. محمد شلي، (التوراة دراسة وتحليل) (ص ٨٣) والبار، د. محمد علي (المدخل لدراسة التوراة) (ص ١٢١).

(٣) البار، د. محمد علي (المدخل لدراسة التوراة) (ص ١٢١).

مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴿١٣٣﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَآؤُلَآ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ٤١]، يقول د. شتيوي^(١) في معرض حديثه عن دلالة هذه الآيات على التحريف أن الحرف (عن) في الآية هو للمكان، ويفيد رفع شيء عن شيء، أما لفظ (بعد) ظرف مكان، وكلا اللفظين يرجحان أن يكون التحريف بمعنى التبديل لا التأويل، وقد نقل د. شتيوي ما جاء في كتاب الإنصاف^(٢) عن معنى التحريف في قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ٤١] أي ينقلونه عن الموضع الذي وضعه الله فيه، فصار وطنه ومستقره إلى غير الموضع فبقي كالغريب المتأسف عليه^(٣).

الخامس:

(لِيَ اللِّسَانُ بِهِ لِيَلْتَبَسَ عَلَى السَّامِعِ اللَّفْظَ الْمُنَزَّلَ بغيره قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمُ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

(وقد فسر الزمخشري^(٤) لِيَ اللِّسَانُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمُ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ﴾ بالقتل واللف، يفتلون بها بقراءته عن الصحيح إلى المحرف.

وقد مثل الله سبحانه وتعالى للتحريف عن طريق لِيَ اللِّسَانُ بقول اليهود للنبي ﷺ ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ [النساء: ٤٦]، أي اسمع ونحن ندعو عليك بعدم السماع، وكقول

(١) شتيوي، د. محمد شليبي (التوراة دراسة وتحليل) (ص ٦٦-٦٧)

(٢) والكتاب لأحمد بن محمد المنير الاسكندراني المالكي (الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال) وقد بين الدكتور شتيوي أن ما نقله من هذا لكتاب مطبوع أسفل تفسير الكشاف - دار المعرفة - لبنان - بيروت (ج ١ / ص ٥٣١).

(٣) شتيوي، د. شليبي (التوراة دراسة وتحليل) (ص ٦٧).

(٤) الزمخشري، (الكشاف) (١ / ٤٣٩) ترتيب وضبط محمد عبدالسلام شاهين.

القائل للرجل يسبه: «إسمع لا أسمعك الله»^(١) وقولهم «رَاعِنَا» [النساء: ٤٦]، وظاهرها حسن وباطنها سيء لما يهتمونه ﷺ بالرعونة وهذا من لي اللسان باستخدامهم كلمات ظاهرها حسن وباطنها سيء^(٢) حيث أن قولهم (غير مسمع) جاءت موضع لا أسمع شراً و(راعنا) مكان (انظرنا) وذلك من باب قتل اللسان وليه استهزاء برسول الله محمد ﷺ ولكن الله سبحانه فضيحتهم وبين باطلهم بتسجيل هذا التحريف عليهم في القرآن الكريم إلى يوم القيامة.

وواضح من خلال ذكر ابن القيم رحمه الله لطرق التحريف عنده أنه طابق هذه الطرق لآيات من كتاب الله سبحانه فكان نقده رحمه الله لهذه الطرق بما استرشده واستدل به من القرآن الكريم وهذه الطريقة كثيراً ما كان يستخدمها ابن القيم في معرض رده وإنكاره على أهل الكتاب وقد كثرت استعانته بآيات الكتاب الحكيم أثناء نقده للوقائع التي تحكي عنها التوراة ويظهر له فيها الإفتراء والكذب على الله سبحانه وتعالى مقترناً ذلك بتمسك اليهود أنها من عند الله عناداً منهم وكذباً ولذلك أراد ابن القيم أن يظهر فضيحتهم ويكسر شوكتهم وعنادهم من خلال رده من واقع آيات الله التي تنطق بالحق عليهم. مركز تحقيق تراثنا علوم إسلامي

(١) الطبري، محمد بن جرير (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) (٢/ ٤٧٥).

(٢) الطبري (جامع البيان) (٢/ ٤٧٦)، والبار، د. محمد علي (المدخل لدراسة التوراة) (ص ١٢٢).